دروس قرآنية

الكتاب:	دروس قرآنية
نشر:	جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
إعداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
الإعداد الإلكتروني:	شبكة المعارف الإسلامية_www.almaaref.org
الطبعة الثامنة:	كانون الثاني ٢٠١٤م- ١٤٣٥هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة ©

سلسلة المعارف الإسلاميّة

دروس قرآنية

إعداد

مركز نون للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدّمة	١١
الدرس الأول :القرآن منهاج حياة	**١٣**
منهاج الحياة	١٥
من خصائص القرآن الكريم	١٨
الدرس الثاني :تاريخ القرآن	**٢٣**
أسماء القرآن	٢٥
نزول القرآن عن طريق الوحي	٢٦
صور الوحي	٢٧
السُّور والآيات المكيَّة والمدنيَّة	٢٨
حفظ القرآن	٢٩
مرحلة كتابة القرآن	٢٩
جمع القرآن	٣١
الدرس الثالث :القرآن الكريم المعجزة الخالدة	**٣٧**
ضرورة المعجزة	٣٩
معجزة القرآن	٤٠
الدرس الرابع :فضل القرآن وتلاوته	**٤٧**
القرآن في القرآن	٤٩
القرآن في كلام العترة	٥٠

قبسات من الحديث	٥١
صفة القرآن	٥٢
فضل قراءة القرآن	٥٤
القراءة في المصحف	٥٥
فضل القراءة في البيوت	٥٦
الدرس الخامس :الآداب الظاهريّة لتلاوة القرآن	**٦١**
تمهيد	٦٣
القرآن نور	٦٤
١- الطهارة	٦٥
٢- تنظيف الفم	٦٥
٣- استقبال القبلة والإقبال التام على التلاوة	٦٥
٤- البدء بالإستعاذة	٦٦
٥- قراءة القرآن في المصحف	٦٦
٦- الترتيل بصوت حسن	٦٦
الدرس السادس :الآداب الباطنيّة لتلاوة القرآن	**٧٣**
تلاوة القرآن حقّ تلاوته	٧٥
١- الإخلاص في القراءة	٧٥
٢- التدبّر في القرآن	٧٦
٣- التفكّر	٧٧
٤- التأثّر والخشية	٧٧
٥- البكاء والحزن	٧٧
٦- التّطبيق	٧٨
مهجوريّة القرآن الكريم	٨٠
الدرس السابع :الموانع والحجب بين المستفيد والقرآن	**٨٣**
مقدّمة	٨٥
حجاب رؤية النَّفس مستغنية	٨٥
حجاب الآراء الفاسدة والعقائد الباطلة	٨٧
حجاب شبهة التفسير بالرأي	٨٨

حجابُ الذُّنوب والمعاصي	٨٨
حجاب حب الدُّنيا	٨٩
الدرس الثامن :الرسم القرآني وأسراره	**٩٣**
أقسام الرسم القرآني	٩٥
متباينات الرسم العثماني والرسم القياسي	٩٦
الوجه الأول :الحذف	٩٦
الوجه الثاني :الزيادة	٩٩
الوجه الثالث :الهمز	٩٩
الوجه الرابع :البدل	**١٠٠**
الوجه الخامس :الفصل والوصل	١٠٠
الدرس التاسع :تفسير القرآن الكريم	**١٠٥**
معنى التفسير	١٠٧
شروط التفسير	١٠٧
تطور علم التفسير	١٠٩
مناهج التفسير	١١٠
١- منهج التفسير التجزيئيّ	١١٠
٢- منهج التفسير الموضوعيّ	١١٠
الدرس العاشر :أصول التفسير	**١١٥**
ظواهر الكتاب	١١٧
العقل القطعيّ	١١٨
طرائق التفسير	١١٨
١- تفسير القرآن بالقرآن	١١٩
٢- التفسير الروائيّ	١٢٠
٣- التفسير اللّغوي	**١٢٠**
القرآن مائدة لجميع الناس	**١٢١**
إعداد النفس لحضور مائدة القرآن	١٢٢
من طرائق التفسير	**١٢٣**

الدرس الحادي عشر :نماذج من التفسير الموضوعي – (١) التوحيد	**١٢٧**
التوحيد	١٢٩
معنى التوحيد	١٢٩
مراتب التوحيد	١٢٩
الدرس الثاني عشر :نماذج من التفسير الموضوعيّ – (٢) النصر	**١٣٧**
النصر	١٣٩
أ –نصر الله تعالى	١٣٩
الرحمة الرحمانية	١٤٠
ب –شروط النصر الإلهي	١٤٠
ج –النصر ودخول الناس في الإسلام	١٤٢
د –استمراريّة النصر مشروطة	١٤٢
محتوى السورة وفضيلتها	١٤٤
الدرس الثالث عشر :تفسير سورة الفاتحة –١	**١٤٧**
١– خصائصها	١٤٩
٢– أهميّتها	١٥٠
٣– محتوى السّورة	١٥٠
٤– في رحاب سورة الفاتحة	١٥١
١– بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ	١٥١
٢–كلمة :الله	١٥٢
٣– الرّحمة الإلهيّة الخاصّة والعامّة	١٥٣
٤– الْحَمْد للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ	١٥٣
الدرس الرابع عشر :تفسير سورة الفاتحة –٢	**١٥٩**
١– مَالِكِ يَوْمِ الدّين	١٦١
٢– إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ	١٦٢
٣– اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيم	١٦٣
٤– صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّآلّين	١٦٤
خطّان منحرفان	١٦٤

من هم (الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)؟	١٦٥
من هم (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)، ومن هم (الضَّالِّينَ)؟	١٦٥
الدرس الخامس عشر :تفسير سورة الضحى	**١٦٩**
-١في رحاب السّورة	١٧١
-٢سبب النّزول	١٧١
-٣التّفسير	١٧٢
-٤فلسفة انقطاع الوحي	١٧٣
-٥الشكر على كلّ هذه النِّعم الإلهيّة	١٧٣
الدرس السادس عشر :تفسير سورة البيّنة	**١٨١**
-١في رحاب السورة	١٨٣
-٢خير البريّة وشرّها عليّ عليه السلام	١٨٧
-٣وشيعته خير البريّة	١٨٩
-٤منحنى الصعود والسقوط	١٩٠
الدرس السابع عشر :تفسير سورة الجمعة	**١٩٥**
-١في رحاب السورة	١٩٨
-٢الهدف من بعثة الرسول	١٩٨
-٣الحمار الّذي يحمل الأسفار	٢٠٠
-٤توصيف حال اليهود	٢٠٠
أهمّيّة صلاة الجمعة	٢٠٣
فلسفة صلاة الجمعة العباديّة والسياسيّة	٢٠٤
دور صلاة الجمعة	٢٠٥

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين وبعد.

للقرآن الكريم ما لا يخفى من الدور العظيم في تثبيت الإنسان والمجتمع على صراط النجاة المستقيم. وقد ورد العديد من الآيات القرآنية والروايات المباركة التي أكّدت على أهميّة جعل القرآن رايةً نورانية تمشي الأمة تحت ظلها. فالتحدّيات العالمية التي تواجهها الأمة اليوم، والغزو الثقافي، كما المادي، الذي يحيط بها من كل اتجاه، يجعل من القرآن الكريم خير قائد ودليل، ومنبعاً للفكر الوضّاء الذي يستطيع أن ينقذ روحانيّة الإنسان، وكيانه ووجوده، ويبقي على ارتباطه المعنوي بالحق عز وعلا، بل إنّ بقاء دولة الحق ووجودها مرتهن بوعي وفهم أصلين أساسين هما: **"كتاب الله وعترتي أهل بيتي"**[1].

وهذا ما يحتاج إلى الغور في رحاب القرآن الكريم تعلّماً وتعليماً وتدبّراً في آياته وسوره.

وقد أكّدت الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام على وجوب تعلّم القرآن وتعليمه، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **"القرآن مأدبة الله فتعلَّموا مِن مأدبة**

[1] الكافي، ج٢، ص ٤١٥.

الله ما استطعتم، إنَّه النّور المبين، والشفاءُ النافع، تعلَّموه فإنَّ الله يشرّفكم بتعلُّمه"[1]. وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: "**ما مِن مؤمن ذكراً أَو أُنثى، حراً أَو مملوكاً، إلا ولله عليه حق واجب أَنْ يتعلَّمَ من القرآن**"[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: "**من تَعَلَّمَ القرآن وتواضع في العلم وعلَّم عباد الله وهو يريد ما عند الله لم يكن في الجنَّة أَعظم ثواباً منه، ولا أَعظم منزلة منه، ولم يكن في الجنَّة منزلة ولا درجة رفيعة ولا نفيسة إلا وكان له فيها أَوفر النصيب، وأَشرف المنازل**"[3].

وروي عن الإمام علي عليه السلام: "**تعلَّموا القرآن فإنَّه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنَّه شفاءُ الصُّدور، وأَحسنوا تلاوته فإنَّه أَنفع (أَحسن) القصص فإنَّ العالمَ العاملَ بغير علمه كالجاهلِ الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحُجَّةُ عليه أَعظمُ والحسرةُ له أَلزم، وهو عند الله أَلوم**"[4].

ومن هنا يظهر الهدف من هذا الكتاب (دروس قرآنية) الذي يسعى إلى تفعيل العلاقة مع القرآن الكريم وتأصيلها، والسعي إلى فهمه والتدبّر في سوره وآياته، ومراعاة آداب التعامل معه، وإزالة الموانع والحجب بيننا وبين القرآن الكريم.

وقد أجرينا بعض التعديل على هذه الطبعة باستبدال بعض الدروس بأخرى، بغية تعزيز الفائدة المرجوّة وتوجيهها أكثر.

على أمل أن يكون لهذا الكتاب أثره العلمي والتربوي المتميّز في ساحتنا الإسلامية، ونكون مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "**معلِّم القرآن يستغفر له كلّ شيء حتَّى الحوت في البحر**"[5].

مركز نون للتأليف والترجمة

---

[1] مستدرك الوسائل، ج١، ص ٢٨٧.

[2] مستدرك الوسائل، ج١، ص٢٨٧.

[3] عقاب الأعمال، ص٥١.

[4] نهج البلاغة، الخطبة رقم ١١٠.

[5] مستدرك الوسائل، ج١، ص٢٨٨.

الدرس الأول: القرآن منهاج حياة

أهداف الدرس

١- أن يتبيّن الطالب أنّ القرآن منهاج للحياة.

٢- أن يتعرّف إلى خصائص القرآن الكريم.

منهاج الحياة

يشتمل الدين الإسلاميّ على أتمّ المناهج للحياة الإنسانيّة، ويحتوي على ما يسوق البشر إلى السعادة في الدارين. هذا الدين عُرفت أسسه وتشريعاته من طريق القرآن الكريم والسنّة الشريفة، فالقرآن الكريم ينبوعه الأوّل ومعينه الّذي يترشّح منه.

والقوانين الإسلاميّة الّتي تتضمّن سلسلة من المعارف الاعتقاديّة والأصول الأخلاقيّة والعمليّة، نجد منابعها الأصيلة في آي القرآن العظيم.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[1]

وقال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِين**﴾[2]

[1] سورة الإسراء، الآية: ٩.

[2] سورة النحل، الآية: ٨٩.

فلو دقّقنا النظر في النقاط التالية نُدرك كيف اشتمل القرآن الكريم على المناهج الحياتيّة الّتي لا بدّ من توفّرها للإنسان:

١. السعادة غاية الإنسان:

يهدف كلّ إنسان في هذه الحياة الدنيا للحصول على السعادة. ولكن يختلف البشر في تحديدها وتشخيص الموارد الّتي يمكن أن تحقّقها فبعضٌ يظنّ السعادة في المال، وآخر في الجاه والمنصب وغيرهم في الشهرة وهكذا ... والسعادة الحقّة يوم القيامة في الجنّة، وقد قال تعالى: ﴿**وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾[١].

٢. ضرورة القوانين والأنظمة:

لا بدّ للإنسان من هدف خاصّ في أفعاله الفرديّة والاجتماعيّة. وللوصول إلى ذلك الهدف ينبغي استناد أعماله إلى قوانين وآداب خاصّة موضوعة من قِبل دين أو غيره.

والقرآن الكريم نفسه يؤيّد هذه النظريّة حيث يقول: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ**﴾[٢].

٣. ضرورة موافقة القوانين للفطرة الإنسانيّة:

ينبغي أن تكون القوانين والأنظمة والآداب موافقة للفطرة السليمة، وليست نابعة من العواطف والاندفاعات الفرديّة أو الاجتماعيّة.

هذا شأن الكون كلّه، سعادته وكماله، باتّباع ما فطره وخلقه الله عليه.

يقول تعالى: ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[٣].

ويقول: ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾[٤]. ويقول: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا *قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[٥].

---

[١] سورة الأعلى، الآية ١٧

[٢] سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

[٣] سورة طه، الآية: ٥٠.

[٤] سورة الأعلى، الآيتان: ٢ ـ ٣.

[٥] سورة الشمس، الآيات: ٧ ـ ١٠.

ويقول: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[1].

ويقول: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ**﴾[2].

ويقول: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْه**﴾[3].

وبعد وضوح هذه المقدّمات، نشير إلى أنّ القرآن الكريم وضع مناهج الحياة للإنسان:
فقد جعل أساس المنهج معرفة الله، وجعل الاعتقاد بوحدانيّته أوّل الأصول الدينيّة. ومن طريق معرفة الله دلّه على المعاد، والاعتقاد بيوم القيامة؛ الّذي يُجازى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وجعله أصلاً ثانياً. ثمّ من طريق الاعتقاد بالمعاد دلّه على معرفة النبيّ لأنّ الجزاء على الأعمال لا يمكن إلّا بعد معرفة الطاعة والمعصية والحسن والسيّئ. ولا تتأتّى هذه المعرفة إلّا من طريق الوحي والنبوّة، وجعل هذا أصلاً ثالثاً.

واعتبر القرآن الكريم هذه الأصول – الاعتقاد بالتوحيد والنبوّة الّتي يتفرّع منها الإمامة والمعاد والّذي يتفرّع منه العدل – أصول الدين الإسلاميّ.

وبعد هذا بيّن أصول الأخلاق المرضية والصفات الحسنة الّتي تُناسب الأصول الثلاثة، والّتي لا بدّ أن يتحلّى بها كلّ إنسان مؤمن، ثمّ شرّع له القوانين والأنظمة العمليّة الّتي تضمن سعادته الحقيقيّة، وتنمّي فيه الأخلاق الطيّبة.

ونتيجة القول: إنّ القرآن الكريم يحتوي على منابع أصول الإسلام الثلاثة كما يلي:
١– أصول العقائد، وهي تنقسم إلى أصول الدين التوحيد والنبوّة المعاد.

[1] سورة الروم، الآية: ٣٠.
[2] سورة آل عمران، الآية: ١٩.
[3] سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

٢- الأخلاق.

٣- الأحكام الشرعيّة والقوانين العمليّة الّتي بيّن القرآن أسسها، وأوكل بيان تفاصيلها إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وجعل النبيّ بيان أهل بيته عليهم السلام بمنزلة بيانه كما يُعرف ذلك من حديث الثقلين المتواتر نقله عند السُنّة والشيعة.

من خصائص القرآن الكريم

١. سلامته من التحريف:

من الخصائص المهمّة للقرآن الكريم أنّه محفوظ عن التحريف، وهذا بخلاف الإنجيل والتوراة اللّذَين حُرِّفا حذفاً وإضافة، يقول سبحانه: ﴿**مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**...﴾[١].

وهناك كتب وبحوث كثيرة أثبتت تحريفهما ما أزال صفة الوحي والقدسيّة عنهما.

أمّا القرآن الحكيم فقد بقي مصوناً محفوظاً بحفظ الله ورسوله، وإليكم بعض ما يدلّ على بقائه كما أنزله الله تعالى:

١. القرآن نفسه: وذلك لتواتره بين المسلمين، وعدم الاختلاف فيه، وقد نزل على قلب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في ٢٣ سنة دون تراجع أو تقدّم في البلاغة والفصاحة وحسن البيان، يقول تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ* يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[٣], وبهذه الآية المتواترة القطعيّة ثبت أن لا زيادة فيه، فهل فيه نقيصة؟

[١] سورة النساء، الآية: ٤٦.

[٢] سورة النساء، الآية: ٨٢.

[٣] سورة فصّلت، الآيتان: ٤١ . ٤٢.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1].

فالذكر هنا هو القرآن، والمراد من حفظه إبقاؤه على ما كان عليه وكما نزل على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. فلو فرض إسقاط آية منه فلا يكون حينئذ محفوظاً من قبل الله، جلّ الله عن ذلك وعلا علوّاً كبيراً.

٢- الروايات الصحيحة عن بيت العصمة والطهارة، حيث تدلّ على أنّ ما بين الدفّتين تمام ما أنزل، من دون نقيصة أو تحريف، وهي على أنواع، منها:
أ. الأخبار الواردة في بيان الثواب لسور القرآن الكاشفة عن عدم تحريف السور لأنّه لا معنى للثواب على قراءة السور المحرّفة.

ب. الأخبار الدالّة على لزوم عرض الأخبار مطلقاً، أو عند تعارضها، على كتاب الله، حيث إنّه لا معنى لعرض الأخبار على القرآن المحرّف، ما يكشف عن صحّته وعدم وقوع التحريف فيه.

ج. الأخبار الدالّة على وجوب التمسّك بالقرآن، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "**إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي**"[2]. وأسانيدها لا تقبل المناقشة عند أحد من المسلمين. فلو كان الكتاب محرّفاً لما كان للتمسك به معنى.

٣- إنّه لو سقط من القرآن شيءلم تبقَ ثقة في الرجوع إليه.
٤- إنّ شدّة الاهتمام والضبط في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبعده في حفظ الكتاب أخرج سقوط شيء منه عن مجرى العادة.

٢. القرآن كتاب عالميّ:
لا يختصّ القرآن بالعرب أو بالمسلمين، إنّما هو كتاب لكلِّ الناس بجميع ألوانهم وأعراقهم، يقول تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**﴾[3].

---

[1] سورة الحجر، الآية: ٩.

[2] سنن الترمذي: ج ٥ ص ٦٦٢ ح ٢٧٨٦ و ٢٧٨٨، صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٨٧٤ ح ٣٦ و ٣٧، ينابيع المودة: ج ١ ص ٩٥ ح ١٢٦، الكافي: ج ٢ ص ٤١٥ باب أدنى ما يكون به العبد مؤمنا أو كافرا أو ضالا من كتاب الإيمان والكفر ح ١، وغيرها من مصادر الفريقين.

[3] سورة ص، الآية: ٨٧.

ويقول سبحانه: ﴿**إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ**﴾[1].

٣. القرآن كتاب شامل:

ففيه كلّ ما يحتاج إليه الإنسان في سيره التكامليّ نحو السعادة من أسس العقائد إلى تنظيم المجتمع وأخلاق المعاملة وأدب العبادة وتنظيم حياة الناس. يقول تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾[2].

٤– القرآن كتاب لكلّ زمان ومكان:

يقول تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ**﴾[3].

القرآن هدفه تعريف الإنسان بنفسه وبربّه ودنياه وآخرته والسبل الآيلة لخلوصه من هذه الدنيا سعيداً وحياته فيها معافى، وهذا غير متعلّق بزمان أو مكان، ففي القرآن الحقائق الثابتة، الّتي لا يتطرّق إليها البطلان ولا تنسخ بمضيّ القرون والأعوام، يقول تعالى: ﴿**وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ**﴾[4].

---

[1] سورة المدّثر، الآيتان: ٣٥ ـ ٣٦.

[2] سورة النحل: الآية ٨٩.

[3] سورة الطارق، الآيتان: ١٤ ـ ١٥.

[4] سورة الإسراء، الآية: ١٠٥.

خلاصة

رسم القرآن مناهج الإنسان الحياتيّة باعتماد المقدّمات التالية:

١- السعادة غاية الإنسان.

٢- ضرورة القوانين والأنظمة.

٣- ضرورة موافقة القوانين للفطرة الإنسانيّة.

وجعل أساس المنهج معرفة الله، وجعل الاعتقاد بوحدانيّته أوّل الأصول الدينيّة، ومنه تفرّعت باقي الأصول.

ويحوي القرآن الكريم منابع أصول الإسلام الثلاثة كما يلي:

١- أصول العقائد، وهي تنقسم إلى أصول الدين التوحيد والنبوّة المعاد وما يتفرّع عليها من الإمامة والعدل.

٢- مكارم الأخلاق.

٣- الأحكام الشرعيّة والقوانين العمليّة.

من خصائص القرآن الكريم

١- سلامته من التحريف.

٢- القرآن كتاب عالميّ.

٣- القرآن كتاب شامل.

٤- القرآن كتاب لكلّ زمان ومكان.

القرآن والإتقان في المعاني

تعرّض القرآن الكريم لمواضيع كثيرة العدد، متباعدة الأغراض من الإلهيّات والمعارف، وبدء الخلق والمعاد، وما وراء الطبيعة من الروح والملك وإبليس والجنّ، والفلكيّات، والأرض، والتاريخ، وشؤون فريق من الأنبياء الماضين، وما جرى بينهم وبين أممهم، وللأمثال والاحتجاجات والأخلاقيّات، والحقوق العائلية، والسياسات المدنيّة، والنُّظُم الاجتماعيّة والحربيّة، والقضاء والقدر، والكسب والاختيار، والعبادات والمعاملات، والنكاح والطلاق، والفرائض، والحدود والقصاص وغير ذلك. وقد أتى في جميع ذلك بالحقائق الراهنة، الّتي لا يتطرّق إليها الفساد والنقد في أيّة جهة من جهاتها، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وهذا شيء يمتنع وقوعه عادة من البشر – ولا سيّما ممّن نشأ بين أمّة جاهلة لا نصيب لها من المعارف، ولا غيرها من العلوم – ولذلك نجد كلّ من ألّف في علم من العلوم النظريّة، لا تمضي على مؤلّفه مدّة حتّى يتّضح بطلان كثير من آرائه. فإنّ العلوم النظريّة كلّما ازداد البحث فيها وكثر، ازدادت الحقائق فيها وضوحاً، وظهر للمتأخّر خلاف ما أثبته المتقدّم. والحقيقة –كما يقولون – بنت البحث، وكم ترك الأوّل للآخر، ولهذا نرى كتب الفلاسفة الأقدمين، ومن تأخّر عنهم من أهل التحقيق والنظر، قد صارت عرضة لسهام النقد ممّن تأخّر، حتّى أنّ بعض ما اعتقده السابقون برهاناً يقينيّاً، أصبح بعد نقده وهماً من الأوهام، وخيالاً من الأخيلة.

والقرآن مع تطاول الزمان عليه، وكثرة أغراضه، وسموّ معانيه، لم يوجد فيه ما يكون معرّضاً للنقد والاعتراض، اللهمّ إلّا أوهام من بعض المكابرين، حسبوها من النقد[1].

[1] البيان في تفسير القرآن، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٦٧ – ٦٨.

الدرس الثاني: تاريخ القرآن

أهداف الدرس

١- بيانُ أسماء القرآن وكيفيَّة نزوله.

٢- التعرُّف على صور الوحي وأنماطه.

٣- معرفةُ الفرق بين السُّور المكيَّة والمدنيَّة.

٤- بيانُ كيفيَّةِ حفظِ القرآن وتدوينه وجمعه.

أسماء القرآن

القرآن الكريم الّذي هو كتاب المسلمين الأوّل، والّذي حاز الاهتمام البالغ من قِبَلهم، والّذي هو المعجزة الخالدة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والّذي هو وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالمحافظة عليه مع العترة الطاهرة، له أوصاف وأسماء عدّة، نذكر منها:

١– القرآن: ﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[١]. وتشير تسميته بـ(القرآن) إلى حفظه في الصدور نتيجة لكثرة قراءته، وترداده على الألسن، لأنّ القرآن مصدر القراءة، وفي القراءة استذكار واستظهار للنصّ.

٢– الكتاب: قال تعالى ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[٢].

وفي تسمية الكلام الإلهيّ بـ (الكتاب) إشارة إلى الترابط بين مضامينه ووحدتها في الهدف والاتّجاه، بالنحو الّذي يجعل منها كتاباً واحداً.

[١] سورة يونس، الآية: ٢٧.

[٢] سورة البقرة، الآية: ٢.

٣– الفرقان: قال تعالى:﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾[١].

فالقرآن يفرق بين الحقّ والباطل، باعتباره مقياساً إلهيّاً مائزاً بين موضوعات الحياة.

٤– الذِّكر: ﴿**وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**﴾[٢], ومعناه الشرف، ومنه قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[٣].

وهناك ألفاظ عديدة أُطلقت على القرآن الكريم على سبيل الوصف لا التسمية كالمجيد، والعزيز، والعليّ، في قوله تعالى ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ**﴾[٤], ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ**﴾[٥], ﴿**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[٦].

والنور، والموعظة، والتنزيل، والحقّ، والبيان، والمنير، والقصص، والسراج، والبشير، والنذير وغيرها الواردة في آي القرآن نفسها أو في الأحاديث.

نزول القرآن عن طريق الوحي

تلقَّى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم القرآن الكريم عن طريق الوحي، ونظراً إلى أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يتلقَّى الوحيَ الإلهيّ من جهةٍ عُليا معنويَّةٍ، وهي الله سبحانه. لذا يقال إنَّ القرآن نزل عليه، للإشارة إلى علوّ الجهة التي اتَّصلَ بها النبيُّ عن طريق الوحي، وتلقَّى عنها القرآن الكريم: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ**

[١] سورة الفرقان، الآية: ١.
[٢] سورة الأنبياء، الآية: ٥٠.
[٣] سورة الأنبياء: الآية: ١٠.
[٤] سورة البروج، الآية: ٢١.
[٥] سورة فصلت، الآية: ٤١.
[٦] سورة الزخرف، الآية: ٤.

يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[1].

والوحيُ لغةً هو: الإعلام في خفاء. أي الطريقة الخفية في الإعلام، وقد أطلق هذا اللَّفظ (الوحي) على الطَّريقة الخَّاصة التي يتصل بها الله تعالى برسوله، نظراً لخفائها ودقتها وعدم تمكُّن الآخرين من الإحساس بها. ولم يكن الوحي هو الطَّريقةُ التي تلقَّى بها خاتم الأنبياء وحده كلمات الله، بل هو الطريقة العامة لاتصال الأنبياء بالله وتلقّيهم الكتب السماوية منه تعالى: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾**[2].

صور الوحي

يبدو من القرآن الكريم أنَّ الوحيَ هذا الاتصال الغيبيّ الخفيَّ بين الله وأصفيائه، له صور ثلاث:

الأوّل: إلقاءُ المعنى في قلب النبيّ أو نفثه في روعه بصورة يحس بأنه تلقاه من الله تعالى.

الثاني: تكليمُ النبيّ من وراء حجاب، كما نادى الله موسى من وراء الشجرة وسمع نداءه.

الثالثة: هي التي متى أطلقت، انصرفت إلى ما يفهمه المتديّنُ عادةً من لفظة الإيحاء، حين يلقي ملك الوحي المرسل من الله إلى نبيٍّ من الأنبياء ما كُلِّفَ إلقاؤه إليه، سواء أُنزل عليه في صورةِ رجلٍ أم في صورته الملكيَّة، وقد أشير إلى هذه الصُّور الثلاث في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾**[3].

وتدلُّ الرِّوايات على أنَّ الوحي الذي تلقَّى النّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم عن طريقه الرِّسالة الخاتمة

[1] سورة الشورى، الآية: ٧.

[2] سورة النساء، الآية: ١٦٣.

[3] سورة الشورى، الآية: ٥١.

وآيات القرآن المجيد، كان بتوسيط الملك في كثير من الأحيان، وبمخاطبة الله لعبده ورسوله من دون واسطة في بعض الأحيان، وكان لهذه الصُّورة من الوحي التي يستمع فيها النبيّ إلى خطاب الله من دون واسطة أثرُها الكبير عليه. ففي الحديث أنَّ الإمام الصادق عليه السلام سئل عن الغشية التي كانت تأخذ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أكانت عند هبوط جبرائيل عليه السلام فقال: لا، وإنما ذلك عند مخاطبة الله عز وجّل إيَّاهُ، بغير تُرجمانٍ وواسطة[1].

السُّور والآيات المكيَّة والمدنيَّة

يتألف القرآن العظيم من ١١٤ سورة وتحتوي كلُّ سورةٍ على عددٍ من الآيات. وأوَّلُ آياتٍ نزلت كما يُنقل عن الإمام الصادق عليه السلام هي الخمس الأوائل من سورة العلق قال: "**أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسم الله الرحمن الرحيم إقرأ باسم ربك**.."[2].

وتنقسم سور القرآن وآياته إلى مكيَّة ومدنيَّة. والضابط والمعيار في التمييز بين الآيات والسُّور المدنيَّة والمكيَّة هو الضابط الزماني، حيث جعلت هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هي المعيار، فكلُّ آيةٍ أو سورةٍ نزلت قبل الهجرة أو أثناءها وقبل الوصول إلى المدينة فهي مكيَّة. وكلُّ ما نزل منها بعد الهجرة حتَّى وإن نزلت في مكّة فهي مدنيَّة. وعليه يكون لدينا في القرآن ٨٦ سورة مكيَّة و٢٨ سورة مدنيَّة.

وأمَّا الخصائصُ الغالبة على السُّور المكيَّة، فهي عبارة عن: الدعوةُ إلى أصول العقائد والأخلاق، الحديثُ عن القيامة والجنَّة والنَّار، مجادلةُ المشركين، كثرةُ القسم، قصصُ الأنبياء، صغرُ السُّور وقصرُ الآيات والإيجاز في الخطاب. أمّا الخصائص الغالبة على السُّور المدنيَّة فهي: طولُ السُّور والآيات، مجادلةُ أهل الكتاب، مجابهةُ المنافقين، ذكرُ الجهاد وأحكامه، بيانُ أحكام الحدود والواجبات والحقوق والإرث، بيانُ القوانين السياسية والاقتصادية والمعاهدات.

[1] بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٦٠.

[2] الكافي، ج٢، ص٦٢٨.

حفظ القرآن

في بداية الدعوة; عقد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه العزم على حفظ القرآن في صدورهم. وكان العرب يتمتَّعون بهذه الهبة الإلهيّة وهي قوَّة الحفظ في حدِّ الكمال. ومع أنهم كانوا محرومين من نعمٍ كثيرة، إلا أنهم برعوا في قوَّةِ الذَّاكرة. فكانوا يحفظون القصائد الطويلة بكلِّ سهولة، ويختزنون في ذاكرتهم دواوين من الشعر، وكان العربيُّ يحفظ ما يسمعه مرةً واحدةً، ويودعه ذاكرته إلى الأبد.

وقد قدم لهم القرآن ببيانه الساحر في صياغته ومحتواه، أروع كلام ورسالة تنفذ إلى أعماق الروح، حيث كانت الآيات والسُّور الأولى التي نزلت في مكّة مسجَّعةً وموزونةً تقريباً. وكان إيقاع الآيات والسُّور أخَّاذاً وجذَّاباً بحيث كان يبهرهم. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحثُّ أصحابه على حفظ الآيات والسُّور، حيث إنَّه في بداية الدَّعوة في مدينة مكّة لم يكن عدد الكتَّابِ كثيراً، ولا أدوات الكتابة كانت متوفّرةً. وهكذا وظَّفَ المسلمون قوةَ حفظهم في أكثر السُّبلِ قدسيَّةً، وجعلوا من صدورهم وقلوبهم موضعاً لآيات القرآن النيِّرة.

مرحلة كتابة القرآن

كانت ضرورة كتابة القرآن واضحةً تماماً في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ الاعتماد على حفظ القرآن في الصُّدور لم يكن يبعث على الاطمئنان فيما يتعلق بصيانته والحفاظ عليه. ومع أنَّ عددَ الذين كانوا يجيدون القراءة والكتابة في عصر نزول الوحي قليلٌ جداً، بحيث ذكر البعض أنَّ عددَ من كان يجيدُ القراءةَ والكتابةَ في مكَّةَ لم يتجاوز سبعةَ عشر شخصاً. إلا أنَّ اهتمام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن وكتابة الوحي، دفعه إلى استدعاء من يعرفون القراءة والكتابة من أجل كتابة وضبط آيات القرآن الكريم. فمتى ما كانت تنزل آيات من القرآن الكريم كان يدعو

كتّاب الوحي ويأمرهم بكتابتها، وكانت هذه الجماعة تُسمَّى بـ "**كتّاب الوحي**". وكان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كما يصرح الجميع تقريباً من أوائل كتّاب الوحي والمداومين على كتابته، حيث إنَّه عليه السلام كان يكتب أكثر الوحي ويكتب غير الوحي أيضاً. وتجدر الإشارة أنَّه كان هناك آخرون يكتبون الوحي أيضاً كأُبي بن كعب وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود، وليس كلّ من كان يجيد الكتابة كان يؤذنُ له بكتابة الوحي، بل كان دورُ البعض منهم مقتصراً على أنْ يكتب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرسائل والعهود وعقود الصلح وغيرها من حوائج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المختلفة.

وكان كتّاب الوحي يكتبون الآيات حسب تسلسل نزولها، ومتى ما نزلت بسملة كانوا يعرفون أنَّ السُّورة السابقة انتهت وبدأت سورة أخرى فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: "**ما أنزل الله من السماء كتاباً إلا وفاتحته بسم الله الرحمن الرحيم وإنما كان يعرف انقضاء السُّورة بنزول بسم الله الرحمن الرحيم ابتداء للأخرى**"[1]. وهكذا كانت تنتظم آيات القرآن على شكل سور على أساس الترتيب الطبيعي وهو ترتيب نزولها، فتأخذ الآيات المكيَّة موضعها في السُّور المكيَّة، وتأخذ الآيات المدنيَّة موضعها في السُّور المدنيَّة، حتَّى وإن كان من الممكن أنْ تطولَ مدَّةُ إكمال السُّورة التي تنزل آياتها مجزأة.

ويستفاد من الوثائق التاريخية أنَّه كانت أحياناً تنزل آية أو آيات ولكن كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمر كتّاب الوحي بكتابتها في ثنايا سورة كانت قد نَزلت وخُتمت من قبل. وهذا النمط من تنظيم الآيات الذي كان يأتي خارج المسار الطبيعي لنزول الآيات، كان يحتاج إلى تصريح وتعيين من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه. ولا شك في أنَّه كانت تكمن في ذلك حكمةٌ ومصلحة.

[1] بحار الأنوار، ج٨٢، ص٢٠.

جمع القرآن

إنَّ كتابة وتنظيم آيات القرآن الكريم، حصلت بلا شكٍّ قبل وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، فكان كلما هبط الوحي بالآيات الكريمة، ثبتت في ذاكرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، وسجّلتها فوراً أيدي كتّاب الوحي في الوضع الذي كان يأمر به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فترتيب الآيات في السُّور كان يتمّ بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. إلا أنَّ جمع القرآن على صورة مصحف منسّقِ الآيات والسُّور ومنتظم الأوراق لم يتم في عهد الرسول الأمين صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لأنه كانت تنزل بعض آيات سورة من السُّور ومن ثمَّ تنقطع بنزول آيات سورةٍ أخرى قبل تلك السُّورة أو بعدها، ثمَّ يَستأنِف الوحي من جديد آيات السُّورة الأولى وهكذا حتَّى كمل التَّنزيل.

ومما لا شك فيه أنَّ حالةً كهذه يتعذَّرُ، بل يستحيل معها جمع القرآن مباشرة في مصحف واحدٍ عند نزوله، لأنّ النزول التدريجي للآيات يستلزم تغييراً مستمرَّاً في الرّقاع المدوّن عليها لتوضع الآية الجديدة محلها، والمشقة فيه غير خافية. كما أنَّه بعد ختم الله الوحي وإتمام النعمة وإكمال الدين لم يعش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فترة مناسبة ليقوم هو بترتيب وجمع الرقاع ونحوها في مصحف منسق واحد، فإنَّه صلى الله عليه وآله وسلم قبض في السنة التي نزلت فيها آخر آية من القرآن. غير أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يتوفَّ إلا بعد أنْ أعلم العددَ الغفيرَ من الصَّحابة، بترتيب القرآن الكريم حتَّى صار حُفَّاظ القرآن الكريم يقرؤونه كاملاً مرتباً على نحو ما أمر به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم من جبرائيل، فكان ذلك ضماناً لترتيب السُّور والآيات في مصحفٍ واحد. وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أميرَ المؤمنين علي عليه السلام بأن يأخذَ القرآن بعد وفاته ويجمَعَهُ كلَّه، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: "**إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعليّ: يا عليّ، القرآن خلف فراشي في المصحف والحرير والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيّعوه كما ضيّعت اليهود التوراة،**

فانطلق عليّ فجمعه في ثوب أصفر ثمَّ ختم عليه في بيته، وقال: لا أرتدي حتَّى أجمعه وإن كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداءٍ حتَّى جمعه"[1].

وعن الإمام علي عليه السلام قال: "**إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي وأوصاني إذا واريته في حفرته أنْ لا أخرج من بيتي حتَّى أؤلف كتاب الله فإنَّه في جرائد النخل وفي أكتاف الإبل..**"[2]. وحين أتمَّ عليه السلام تجهيزَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتكفينه ودفنه والنَّاس منصرفون إلى شؤون البيعة والخلافة في سقيفة بني ساعدة، انصرفَ أمير المؤمنين عليه السلام إلى تنسيق تلك الرّقاعِ وتنظيمها وترتيب سورها وآياتها، وجعْلِهَا كتاباً واحداً بعد أنْ كانت في رقاعٍ متنوّعةٍ وغيرِ منتظمة.

ولكنْ ظلَّ المسلمون، وعلى الرَّغمِ من جمع القرآن وتنسيقه في مصحفٍ واحدٍ، يقرؤونه بقراءاتٍ شتَّى لاختلاف ألسنتهم، فكان الاختلافُ في الحركة الإعرابيَّة مثلاً مثاراً للخلاف بينهم وتشتيت كلمتهم، الأمر الذي دعا حذيفة بن اليمان بعد عودته من فتح بلاد أرمينية وآذربيجان مع أهل العراق، إلى أنْ يُسرِعَ إلى الخليفة عثمَّان بن عفان يذكّرُه بمنع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من الاختلاف في القرآن قائلاً له: "**أدرك هذه الأمة قبل أنْ يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنَّصارى**"، فقام عثمَّان بجمع المسلمين على قراءة واحدة وهي القراءة المتعارفة بين المسلمين، والتي تلقُّوها من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالتَّواتر، ومنعَ سائرَ القراءات، وأحرقَ المصاحف أو أتلفها عدا المصحف الذي اختاره، واستنسخته لجنة مؤلَّفَةٌ من زيد بن ثابت وجماعة آخرين.

[1] بحار الأنوار، ج٨٩، ص٤٨.

[2] بحار الأنوار، ج٢٨، ص٢٢٧.

خلاصة الدرس

١- للكتاب الإلهيّ المنزل أسماء عديدة منها القرآن والفرقان والذكر.

٢- نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق الوحي الذي هو الطريقة الخاصة التي يتصل بها الله تعالى برسوله.

٣- للوحي ثلاث صور وأنماط مختلفة: إمّا إلقاء المعنى في قلب النبيّ، أو تكليم النبيّ من وراء حجاب، أو من خلال ملك مرسل من الله إلى النبيّ.

٤- في بداية الدعوة كان حفظ القرآن من خلال ما يختزنه العرب في ذاكرتهم القوية من الآيات والسُّور، وما يحفظونه منها.

٥- بما أنَّ الاعتماد على حفظ القرآن في الصدور لم يكن يبعث على الاطمئنان لذا عمد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى تدوين القرآن وكتابته كلما نزلت آية من خلال الاستعانة بأشخاص عرفوا فيما بعد (بكتّاب الوحي)، وكان على رأسهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

٦- أوصى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قبل عروج روحه المقدّسة وهو على فراشه أمير المؤمنين عليه السلام بجمع القرآن الذي كان ما يزال في جرائد النخل وفي أكتاف الإبل، فانصرف الإمام علي عليه السلام إلى تنسيق تلك الرقاع وتنظيمها وترتيب سورها وآياتها حتَّى صارت في كتاب واحد.

للمطالعة

الاستقامة في أساليب القرآن

... أحسّت العرب بهذه الاستقامة في أساليب القرآن، واستيقنت بذلك بلغاؤهم. وإنّ كلمة الوليد بن المغيرة في صفة القرآن تفسّر لنا ذلك، حيث قال، حين سأله أبو جهل أن يقول في القرآن قولاً: "فما أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم في الأشعار منّي ولا أعلم برجزه منّي، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ. والله ما يشبه الّذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّه ليحطّم ما تحته، وإنّه ليعلو ولا يُعلى.

قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتّى تقول فيه.

قال الوليد: فدعني حتّى أفكّر فيه، فلما فكّر. قال: هذا سحر يأثره عن غيره"[1]..

وفي بعض الروايات قال الوليد: **"والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ومن كلام الجنّ، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر"**[2].

وإذا أردت أن تحسّ ذلك من نفسك فانظر إلى الكتب المنسوبة إلى الوحي، فإنّك تجدها متناقضة المعاني، مضطربة الأسلوب، لا تنهض ولا تتماسك. وإذا نظرت إلى كتب العهدين، وما فيها من تضارب وتناقض، تجلّت لك حقيقة الأمر، وبان لك الحقّ من الباطل. وهنا نذكر أمثلة ممّا وقع في الأناجيل من هذا الاختلاف:

١- في الإصحاح الثاني عشر من إنجيل متّى، والحادي عشر من لوقا: أنّ المسيح قال: **"من ليس معي فهو عَليّ، ومن لا يجمع معي فهو يفرّق"**. وقال في التاسع

[1] تفسير الطبري، ج ٢٩، ص ٩٨.

[2] تفسير القرطبي، ج ١٩، ص ٧٢.

من مرقس، والتاسع من لوقا: "**من ليس علينا فهو معنا**".

٢- وفي التاسع عشر من متّى، والعاشر من مرقس، والثامن عشر من لوقا: أنّ بعض الناس قال للمسيح: "**أيّها المعلّم الصالح. فقال: لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلّا واحد وهو الله**". وفي العاشر من يوحنّا أنّه قال: "**أنا هو الراعي الصالح... أمّا أنا فإنّي الراعي الصالح**".

٣- وفي السابع والعشرين من متّى قال: "**كان اللّصّان اللّذان صُلبا معه – المسيح – يعيّرانه**"، وفي الثالث والعشرين من لوقا: "**وكان واحد من المذنبين المعلّقين يجدّف عليه قائلاً: إن كنت أنت المسيح فخلّص نفسك وإيّانا، فأجاب الآخر وانتهره قائلاً: أوَ لا تخاف الله؟ إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه**".

٤- وفي الإصحاح الخامس من إنجيل يوحنّا: "**إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقّاً**". **وفي الثامن من هذا الانجيل نفسه أنّه قال: "وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حقّ**".

هذه نبذة ممّا في الأناجيل – على ما هي عليه من صغر الحجم – من التضارب والتناقض. وفيها كفاية لمن طلب الحقّ، وجانَبَ التعصّبَ والعناد[١].

[١] البيان في تفسير القرآن، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٥٦ – ٥٨.

الدرس الثالث: القرآن الكريم المعجزة الخالدة

أهداف الدرس

١- بيانُ ضرورة المعجزة وأهمّيتِها في هداية النَّاس إلى الله.

٢- بيانُ أنَّ معجزة الإسلام الأساسية والكبرى هي القرآن الكريم.

٣- بيانُ الأوجه المختلفة لإعجاز القرآن.

ضرورة المعجزة

الحكمة الإلهيّة تقتضي تزويد الإنسان بطريق الهداية إلى الله تعالى، غير طريق الحسّ والعقل لقصورهما وعدم قدرتهما بذاتهما على معرفة طريق الهداية إلى الله بكلِّ أبعاده وتفاصيله. فكانت الحاجة إلى طريق آخر غير الحسّ والعقل، وهذا الطريق هو طريق الوحي والنُّبوَّة، أي طريق الغيب: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ**﴾[1].

وبما أنَّ أفراد النَّاس ليسوا جميعهم مؤهّلين لاستقبال الوحي، فلا بدَّ إذن من الوحي لبعضهم ورجوع الآخرين إليهم لمعرفة إرادة الربّ ومشيئته. وبما أنَّ الوحي ليس أمراً محسوساً للآخرين حتَّى يروه ويعرفوا أنَّ هذا الشخص الذي قد أوحي إليه أنَّه هو النبيّ، كان لا بد من وجود طريق نعرف من خلاله تمييز ذلك الشخص ولياقته لتلقّي الوحي الإلهيّ، ولا بدَّ أنْ تكون لديه علامةٌ على ذلك من قبل الله تعالى. أي لا بدَّ أنْ يكون فيه أثرٌ يدلُّ على ارتباطه بالله عز وجل. وهذه العلامة أو الطريق ليست سوى "**المعجزة**" التي يختصُّ بها النبيّ وحده، والتي تمكِّنُه من فعل أشياءَ يعجزُ سائر النَّاس عن فعلها والإتيان بمثلها.

والمعجزة, هي أمرٌ خلاف المجاري العاديّة والسنن الطبيعية والتي لا تحصل

[1] سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

إلا بقدرة الحقّ عزّ وجل وإرادته، فتكون هذه المعجزة دليلاً على شدَّة ارتباط هذا الشخص بالله تعالى، وعلى نبوَّته. فالحقّ سبحانه وتعالى، يؤيّد أنبياءه بالمعجزات الباهرات التي تجعل المرءَ مشدوهاً إلى صاحبها والذي ما يلبث أنْ يعترف أنَّه لا يملك شيئاً من عند نفسه، وإنَّما هو مبعوث من الله الحقّ.

وبما أنَّ النَّاس ينجذبون إلى ما هو خارق للعادة، وبما أنّهم لم يقدروا على الإتيان بمثله، فإنّهم يعترفون بعجزهم أمام النبيّ الذي راح يتلو عليهم آيات الله ويلفتهم إلى المعجزة الكبرى التي هي سرّ العالم. فالمعجزة إذاً ظاهرة عامة في كلّ النبوّات، وتأييد لمدّعاهم السفارة من الله. وهي فعل يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله، لذا أصبحت طريقاً لمعرفة النبيّ. وللمعجزة علامتان أساسيتان:

الأولى: أنَّه لا يمكن أنْ يتغلّب عليها أيّ عاملٍ آخر أقوى منها.

الثاني: أنَّها غير قابلة للتَّعلّم والتَّعليم، وإنَّما هي موهبة إلهية يمنحها الله لمن يشاء من عباده.

معجزة القرآن

العقل الإنساني يحكم بضرورة المعجزة للأنبياء عليهم السلام فيما إذا توقّف عليها إتمام الحجّة على النَّاس وهدايتهم، والأنبياء عليهم السلام بشكل عام لا بدَّ أنْ يكونوا مؤيّدين بالإعجاز.

القرآن الكريم قد ذكر الكثير من معاجز الأنبياء والرسل كمعجزة "**المائدة**" و"**الناقة**" و"ولادة النبي عيسى عليه السلام" ومعاجز النبي "**موسى عليه السلام**" ومعاجز النبي "**نوح عليه السلام**" والنبي "**إبراهيم عليه السلام**" والكثير من المعاجز التي حصلت للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. والملاحظة المهمَّة في مجال المعجزات أنَّ جميعَ معجزات الأنبياء والرسل عليهم السلام باستثناء معجزة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كانت مقصورة على الحاضرين، حيث كانت تثبت عندهم بالمشاهدة ثمَّ يتمّ إثباتها للغائبين عن طريق النقل. فجميع

الرّسالات السّماوية السّابقة على الإسلام كانت محدودةً في الزّمان والمكان، والآيات القرآنيّة تشيرُ إلى ذلك بوضوح.

ولكن لما كانت رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هي الرّسالة الخاتمة حيث إنَّه لا نبيّ بعده: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾[1]، وبما أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يُبعثْ لأمَّةٍ محدّدة في مكانٍ محدّد، وزمان معيَّن، أو زمان خاص، وإنّما أُرسل إلى النَّاس كافّةً كما تشيرُ الآيات القرآنيّة إلى شموليَّة دعوته صلى الله عليه وآله وسلم وعمومية نبوّته لجميع البشر: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[2]، فلا بد أنْ تتبعه البشرية منذ ذلك الوقت إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها، لذا كانت الحكمةُ الإلهيّةُ تقتضي تزويد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بمعجزة خالدة لا تقتصر على زمان خاص، ولا على مكانٍ معيّنٍ.

فرسالةُ الإسلام أبديَّةٌ عالميةٌ، ولا بد أنْ تكونَ معجزته كذلك وقد تحقَّق ذلك في القرآن الكريم، وهو بنفسه يصرّح بذلك حيث ينقل عن البعض قولهم إنَّه لو أردنا أنْ نأتيَ بمثله لفعلنا: ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾[3]. ولكن القرآن تحدّاهم بصورٍ متعدّدة منها قوله تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[4].

والصورة الأخرى هي أنَّه تحدّاهم أنْ يأتوا بعشر سور مثله: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾[5].

---

[1] سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

[2] سورة سبأ، الآية: ٢٨.

[3] سورة الأنفال، الآية: ٣١.

[4] سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

[5] سورة هود الآيتان: ١٣ ـ ١٤.

والصورة الثالثة هي أنَّه تحدّاهم أنْ يأتوا بسورة مثله: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1].

وآية أخرى تتحدّى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[2].

هكذا كان جوُّ المعارضة في القرآن، بحيث إنَّه لو فكَّر إنسانٌ فيه فسوف يقطع بأنَّ هذا الكتاب منزلٌ من الله تعالى، فهو حديث باللغة العربيَّة مكوّن من حروف وكلمات تستعمل في الحوار اليومي، إلا أنَّ أحداً لا يستطيع أنْ يأتي بسورة مثله مكوّنة من سطر واحد، لذا كان القرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى والخالدة.

وجوه إعجاز القرآن

القرآن الكريم يؤكد أنَّه معجزة وأنّه لا يمكن الإتيان بمثله على الإطلاق. وقد كتبت مؤلّفات لهذا الغرض، ولكن نشير إجمالاً إلى وجوه إعجاز القرآن:

من جملة وجوه إعجازه، بلاغته. والبلاغة هي صياغة الكلام بحيث يتفق مع مقتضى الحال، ويؤدّي أهدافَ القائل على أفضل وجه. فالبلاغةُ لا تقتصر على اختيار الكلمات الجميلة والجذَّابة، وإنَّما لا بد بالإضافة إلى ذلك من الأخذ بعين الاعتبار هدف القائل ووضع السَّامع. ولما كان الله تعالى يعرف هدفه أفضل من الجميع ويعرف وضع عباده أحسن من كلّ أحد، وهو المحيط بكلِّ التركيبات اللغوية، فإنَّه تعالى يستطيع بيان هدفه على أساس ما تقتضيه حال عباده وبأفضل وجه ممكن، أمّا الآخرون فهم محرومون من مثل هذه الخصائص. والشاهد على كونه إعجازاً، أنَّه لم يستطع أحد على طول التاريخ أنْ يأتيَ بمثله مع وجود كلِّ هذا التراث الأدبي والبلاغي، الضَّخم ووجود كلِّ الدواعي التي تحمل على المعارضة، فكلّما صاغ

[1] سورة يونس، الآية: ٣٨.

[2] سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

إنسانٌ ما كلاماً وجده المطّلعون وذوو الخبرة أخفض منزلة من القرآن.

ومن وجوه إعجاز القرآن أيضاً عدم وجود الاختلاف فيه: قال تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**﴾[1]. فلو كان الكلامُ صادراً من إنسانٍ لوُجِدَ فيه الاختلاف، لأنَّ الإنسان كجميع الموجودات المادّية في حالة تغيُّرٍ دائمٍ ومستمر، فهو يخضع لتأثير العوامل المحيطة المختلفة فيتكامل وتزداد معلوماته وتتغيَّر حالاته، كلُّ هذه الأمور تؤثّر في كلامه فلا يستطيع أنْ يحافظ على لون واحد من الكلام والبلاغة طيلة عمره. فتارة ينخفض مستوى كلامه وأخرى يرتفع.

ومن وجوه إعجاز القرآن أيضاً أنّ حامله شخص لم يتلقّ درساً من العلماء، وكانت طريقته في الحديث مثل سائر النَّاس: ﴿**فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ**﴾[2] ثمَّ فجأة يظهر هذا الكلام المنقطع النظير الذي لا يمكن مقارنته بأحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد البعثة، وإن كانت بحدِّ ذاتها في مستوىً رفيعٍ من حيث البلاغة والفصاحة. قال تعالى: ﴿**قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾[3]. فالرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم يريد أنْ يقول لأمّته إنَّني قد عشت معكم كلَّ هذا العمر ولم تلاحظوا صدور مثل هذا الكلام منّي وبعد أربعين عاماً من عمري لاحظتم صدور كلام يختلف عن كلامي السابق، فلو لم يكن من الله لوجدتم أنَّه مثل كلامي: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[4].

ومن أهمّ وجوه إعجازه أنَّه كتابٌ جامعٌ لكلِّ مراتب الهداية، وهو كتاب التربية الذي يلامس عمق الفطرة الإنسانية ويرتفع بها إلى أعلى علّيّين، في مختلف أبعاد

[1] سورة النساء، الآية: ٨٢.

[2] سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

[3] سورة يونس، الآية: ١٦.

[4] سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

الإنسان وكل ما يحتاجه في حياته. فالإنسان يستحيل عليه أنْ يكون ملمّاً بجميع المعارف العقائدية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والعسكرية وكلّ ما يحتاجه الإنسان في حياته، وقد ثبت عملياً أنَّ الإنسان إذا أراد أنْ يتقدّم في مجال ما، لا بدَّ أنْ يُنفق كلّ عمره في اتجاه واحد، حتَّى يتخصَّص فيه ويلمّ بمعظم جوانبه، وأمّا أنْ يُحيط الإنسان بجميع التخصّصات والمجالات وينظر بشأنها أيضاً، فهو الإعجاز بعينه والدليل على أنَّه مرتبط بالله العالم بكل شيء.

ومنها أيضاً، أنَّ انفعال الأذواق المتغيّرة عبر العصور وشعور النَّاس بأنه يخاطبهم في عصرهم ومشاكلهم وخصوصيّاتهم دائماً هو دليل إعجاز بنفسه. وأيضاً اعتراف النَّاس والعلماء والمفسّرين بعجزهم عن الإحاطة التامّة به، مع أنَّ كلّ واحدٍ منهم يرى فيه ريّاً لعطشه الذي لا ينتهي.

ومن وجوه الإعجاز الأخرى إتيانه بمواضيع علمية لم تكن مقبولة في ذلك الزمان، من قِبَلِ المحافل العلمية، ثمَّ تقدّمت بعد ذلك وأثبتت صحتها.

ومن وجوه إعجاز القرآن إخباره بالغيب، وتنقسم هذه الأخبار إلى قسمين: قسم منها يتعلَّق بالحوادث الماضية التي لم يكن لأحد من النَّاس سبيل إليها: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾[1].

والقسم الآخر يتعلَّقُ بالأحداث التي ستقع في المستقبل منها قوله تعالى: ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾[2]. ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[3].

[1] سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

[2] سورة الروم، الآيتان: ٢ ـ ٣.

[3] سورة الفتح، الآية: ٢٧.

خلاصة

١- الإنسان ليس بمقدوره الاهتداء إلى طريق الله بواسطة الحواس والعقل لقصورهما وعجزهما، لذا كانت الحاجة إلى طريق آخر غيبيّ، وهذا الطريق هو طريق الوحي والنُّبوَّة.

٢- للمعجزة علامتان أساسيّتان هما: أنّها غير قابلة للتعلّم والتعليم، وأنّه لا يمكن أنْ يتغلّب عليها أيُّ عامل آخر.

٣- كونُ الإسلام رسالة أبدية عالمية، وكون دعوة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ونبوّته لجميع البشر، فهي غيرُ محدَّدةٍ بمكان خاص وزمان خاص، لأجل هذا كان القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة.

٤- لإعجاز القرآن أوجه عديدة منه, البلاغة المنقطعة النظير، عدم وجود أي اختلاف أو تناقض فيه، أنَّ حامله لم يتلقّ درساً في حياته على أحد، وأنه جامع لكلِّ مراتب الهداية وفيه كلّ ما يحتاجه الإنسان بحيث إنَّ كلَّ واحد يجد فيه ريَّاً لعطشه، إخباره بالغيب في موارد كثيرة سواء التي حصلت أو التي سوف تحصل، إتيانه بمواضيع علمية لم تكن معروفةً سابقاً.

الدرس الرابع: فضل القرآن وتلاوته

أهداف الدرس

١- أن يتبيّن الطالب فضل القرآن في القرآن.

٢- أن يتبيّن فضل القرآن في كلام العترة.

٣- أن يتعرّف إلى صفة القرآن الكريم.

من الخير أن يقف الإنسان دون ولوج هذا الباب، وأن يتصاغر أمام هذه العظمة، وقد يكون الاعتراف بالعجز خيراً من المضيّ في البيان.

ماذا يقول الواصف في عظمة القرآن، وعلوّ كعبه؟ وماذا يقول في بيان فضله، وسموّ مقامه؟ وكيف يستطيع الممكن أن يدرك مدى كلام الواجب؟ وماذا يكتب لكاتب في هذا الباب؟ وبمَ يتفوّه الخطيب؟ وهل يصف المحدود إلّا محدوداً؟

القرآن في القرآن

وحسبُ القرآن عظمة، وكفاه منزلةً وفخراً أنّه كلام الله العظيم، ومعجزة نبيّه الكريم، وأنّ آياته هي المتكفّلة بهداية البشر في جميع شؤونهم وأطوارهم في أجيالهم وأدوارهم، وهي الضمينة لهم بنيل الغاية القصوى والسعادة الكبرى في العاجل والآجل: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[1].

﴿**الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾[2].

﴿**هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[3].

[1] سورة الإسراء، الآية: ٩.

[2] سورة إبراهيم، الآية: ١.

[3] سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

القرآن في كلام العترة

وقد ورد في الأثر عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: "**فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه**"[1].

نعم من الخير أن يقف الإنسان دون ولوج هذا الباب، وأن يَكِلَ بيان فضل القرآن إلى نظراء القرآن أهل البيت عليهم السلام، فإنّهم أعرف الناس بمنزلته، وأدلّهم على سموّ قدره، وهم قرناؤه في الفضل، وشركاؤه في الهداية، أمّا جدّهم الأعظم فهو الصادع بالقرآن، والهادي إلى أحكامه، والناشر لتعاليمه. وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: "**إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض**"[2]. فالعترة هم الأدلّاء على القرآن، والعالمون بفضله.

فمن الواجب أن نقتصر على أقوالهم، ونستضيء بإرشاداتهم. ولهم في فضل القرآن أحاديث كثيرة جمعها شيخنا المجلسيّ في (البحار) المجلّد التاسع والثمانين منه. نذكر منها:

قال الحارث الهمدانيّ: "دخلت المسجد فإذا أناس يخوضون في أحاديث فدخلت على عليّ عليه السلام فقلت: ألا ترى أن أناساً يخوضون في الأحاديث في المسجد؟ فقال عليه السلام: قد فعلوها؟ قلت: نعم، قال عليه السلام: أما إنّي قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ستكون فتن، قلت: وما المخرج منها؟ قال عليه السلام: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، هو الّذي مَن تركه من جبّار قصمه الله، ومَن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الّذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق عن كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه.

[1] بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٦، صحيح الترمذي بشرح ابن العربي، ج ١١، ص ٤٧، أبواب فضائل القرآن.

[2] رواه الترمذي، ج ١٣، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

وهو الّذي لم ينته الجنّ إذ سمعته أن قالوا: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا**﴾[1]، هو الّذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم"[2].

قبسات من الحديث

وفي الحديث مغازٍ جليلة يحسن أن نتعرّض لبيان أهمّها. يقول صلى الله عليه وآله وسلم: "**فيه نبأ ما كان قبلكم. وخبر ما بعدكم**" والّذي يحتمل في هذه الجملة وجوه:

الأوّل: أن تكون إشارة إلى أخبار النشأة الأخرى من عالمي البرزخ والحساب والجزاء على الأعمال. ولعلّ هذا الاحتمال هو الأقرب، ويدلّ على ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته: "**فيه نبأ من كان قبلكم والحكم فيما بينكم وخبر معادكم**".

الثاني: أن تكون إشارة إلى المغيّبات الّتي أنبأ عنها القرآن، ممّا يقع في الأجيال المقبلة.

الثالث: أن يكون معناها أنّ حوادث الأمم السابقة تجري بعينها في هذه الأمّة، فهي بمعنى قوله تعالى: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ**﴾[3].

أمّا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "**من تركه من جبّار قصمه الله**" فلعلّ فيه ضماناً بحفظ القرآن من تلاعب الجبّارين، بحيث يؤدّي ذلك إلى ترك تلاوته وترك العمل به، وإلى جمعه من أيدي الناس كما صنع بالكتب الإلهيّة السابقة. فتكون إشارة إلى حفظ القرآن من التحريف. وهذا أيضاً هو معنى قوله في الحديث: "**لا تزيغ به الأهواء**" بمعنى لا تغيّره عمّا هو عليه، لأنّ معاني القرآن قد زاغت بها الأهواء فغيّرتها. وأشار الحديث إلى أن أبناء الأمّة لو رجعوا إلى القرآن في خصوماتهم، وما

[1] سورة الجن، الآية ١.

[2] بحار الأنوار، ج٨٩، ص٢٤.

[3] سورة االانشقاق، الآية: ١٩.

يلتبس عليهم في عقائدهم وأعمالهم لأوضح لهم السبيل، ولوجدوه الحكم العدل، والفاصل بين الحقّ والباطل.

فلو أقامت الأمّة حدود القرآن، واتّبعت مواقع إشاراته وإرشاداته، لعرفت الحقّ وأهله، وعرفت حقّ العترة الطاهرة الّذين جعلهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قرناء الكتاب، وأنّهم الخلفاء على الأمّة من بعده، ولو استضاءت الأمّة بأنوار معارف القرآن، لأمنت العذاب الواصب، ولما تردّت في العمى، ولا غشيتهم ليالي الضلال، ولا ضُيّع سهم من فرائض الله، ولا زلّت قدم عن الصراط السويّ، ولكنّها أبت إلّا الانقلاب على الأعقاب، واتّباع الأهواء، والانضواء إلى راية الباطل حتّى آل الأمر إلى أن يكفّر بعض المسلمين بعضاً، ويتقرّب إلى الله بقتله، وهتك حرمته، وإباحة ماله، وأيّ دليل على إهمال الأمّة للقرآن أكبر من هذا التشتّت العظيم؟!!

صفة القرآن

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في صفة القرآن:

"ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تُطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده، وبحراً لا يُدرك قعره، ومنهاجاً لا يضلّ نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوءه، وفرقاناً لا يُخمد برهانه، وتبياناً لا تُهدم أركانه، وشفاءً لا تُخشى أسقامه، وعزّاً لا تُهزم أنصاره، وحقّاً لا تُخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافيّ الإسلام وبنيانه، وأودية الحقّ وغيطانه، وبحر لا يُنزفه المنتزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضلّ نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجَّ لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته، وعزّاً لمن تولّاه، وسلماً لمن دخله، وهدى لمن ائتمّ به،

وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلّم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاجّ به، وحاملاً لمن حمله، ومطيّة لمن أعمله، وآيةً لمن توسّم، وجُنّة لمن استلأم، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى وحكماً لمن قضى"[1].

وقد استعرضت هذه الخطبة الشريفة كثيراً من الأمور المهمّة الّتي يجب الوقوف عليها، والتدبّر في معانيها. فقوله:
١- "لا يخبو توقّده" خبت النار: خمد لهبها. يريد بقوله هذا وبكثير من جمل هذه الخطبة أنّ القرآن لا تنتهي معانيه، وأنه غضّ جديد إلى يوم القيامة. فقد تنزل الآية في مورد أو في شخص أو في قوم، ولكنّها لا تختصّ بذلك المورد أو ذلك الشخص أو أولئك القوم، فهي عامّة المعنى.

عن أبي عبد الله عليه السلام: **"إنّ القرآن حيّ لم يمت، وإنّه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أوّلنا"**[2].

٢- "ومنهاجاً لا يضلّ نهجه": إنّ القرآن طريق لا يضلّ سالكه، فقد أنزله الله تعالى هداية لخلقه، فهو حافظ لمن اتّبعه عن الضلال.

٣- "وتبياناً لا تهدم أركانه": المحتمل في المراد من هذه الجملة أحد وجهين:
الأوّل: أنّ أركان القرآن في معارفه وتعاليمه، وجميع ما فيه من الحقائق. محكمة لا تقبل التضعضع والانهدام.
الثاني: أنّ القرآن بألفاظه لا يتسرّب إليه الخلل والنقصان، فيكون فيها إيماء إلى حفظ القرآن من التحريف.

٤- "ورياض العدل وغدرانه": الرياض جمع روضة، وهي الأرض الخضرة بحسن النبات. العدل بمعنى الاستقامة، والغدران جمع غدير وهو الماء الّذي تغدره أي تنتجه السيول. معنى هذه الجملة: أنّ العدل بجميع نواحيه من الاستقامة في العقيدة

[1] نهج البلاغة، ج٢، ص١٧٨.
[2] بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٣٥، ص٤٠٤.

والعمل والأخلاق قد اجتمع في الكتاب العزيز، فهو مجمع العدالة وملتقى متفرّقاتها.

٥- "وأثافي الإسلام": الأثافيّ كأمانيّ جمع أثفيّة - بالضمّ والكسر - وهي الحجارة الّتي توضع عليها القدر. ومعنى ذلك: أنّ استقامة الإسلام وثباته بالقرآن كما أنّ استقامة القِدر على وضعها الخاص تكون بسبب الأثافيّ.

٦- "وأودية الحقّ وغيطانه": يريد بذلك: أنّ القرآن منبت الحقّ، وفي الجملة تشبيه القرآن بالأرض الواسعة المطمئنّة، وتشبيه الحقّ بالنبات النابت فيها. وفي ذلك دلالة على أن المتمسّك بغير القرآن لا يمكن أن يصيب الحقّ، لأنّ القرآن هو منبت الحقّ، ولا حقّ في غيره.

٧- "وبحر لا ينزفه المنتزفون": نزف ماء البئر: نزح كله. ومعنى هذه الجملة والجمل الّتي بعدها: أنّ المتصدّين لفهم معاني القرآن لا يصلون إلى منتهاه، لأنّه غير متناهي المعاني، بل وفيها دلالة على أنّ معاني القرآن لا تنقص أصلاً، كما لا تنضب العيون الجارية بالسقاية منها.

٨- "وآكام لا يجوز عنها القاصدون": والآكام جمع أكم، كقصب، وهو جمع أكمة، كقصبة، وهي التلّ. والمراد أنّ القاصدين لا يصلون إلى أعالي الكتاب ليتجاوزوها. وفي هذا القول إشارة إلى أنّ للقرآن بواطن لا تصل إليها أفهام أولي الأفهام.

وقد يكون المراد أنّ القاصدين إذا وصلوا إلى أعاليه وقفوا عندها ولم يطلبوا غيرها، لأنّهم يجدون مقاصدهم عندها على الوجه الأتمّ.

فضل قراءة القرآن

القرآن هو الناموس الإلهيّ الّذي تكفّل للناس إصلاح الدين والدنيا، وضمن لهم سعادة الآخرة والأولى، فكلّ آية من آياته منبع فيّاض بالهداية ومعدن من معادن الإرشاد والرحمة، فالّذي تروقه السعادة الخالدة والنجاح في مسالك الدين والدنيا، عليه أن يتعاهد كتاب الله العزيز آناء الليل وأطراف النهار، ويجعل آياته الكريمة

قيد ذاكرته، ومزاج تفكيره، ليسير على ضوء الذكر الحكيم إلى نجاح غير منصرم وتجارة لن تبور. وما أكثر الأحاديث الواردة عن أئمّة الهدى عليهم السلام وعن جدّهم الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في فضل تلاوة القرآن منها: عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: **"القرآن عهد الله إلى خلقه، فقد ينبغي للمرء المسلم أن ينظر في عهده، وأن يقرأ منه في كلّ يوم خمسين آية"**[1] وقال عليه السلام: **"ما يمنع التاجر منكم المشغول في سوقه إذا رجع إلى منزله أن لا ينام حتّى يقرأ سورة من القرآن فيُكتب له مكان كلّ آية يقرأها عشر حسنات، ويُمحى عنه عشر سيّئات؟"**[2].

وقال: **"عليكم بتلاوة القرآن، فإنّ درجات الجنة على عدد آيات القرآن، فإذا كان يوم القيامة يقال لقارئ القرآن: إقرأ وارقَ، فكلّما قرأ آية يرقى درجة"**[3].

وقد جمعت كتب الأصحاب من جوامع الحديث كثيراً من هذه الآثار الشريفة من أرادها فليطلبها. وفي الجزء التاسع عشر من كتاب بحار الأنوار الشيء الكثير من ذلك.

القراءة في المصحف

دلّت جملة من الآثار على فضل القراءة في المصحف على القراءة عن ظهر القلب. ومن هذه الأحاديث قول إسحاق بن عمار للصادق عليه السلام: **"جعلت فداك إنّي أحفظ القرآن عن ظهر قلبي فأقرأه عن ظهر قلبي أفضل أو أنظر في المصحف؟ قال: فقال لي: لا. بل أقرأه وانظر في المصحف فهو أفضل. أما علمت أنّ النظر في المصحف عبادة؟"**[4].

[1] الكافي، ج٢، ص٦٠٩.

[2] م.ن، ج٢، ص٦١١.

[3] الوسائل، الحرّ العاملي، ج٦، ص١٩٠.

[4] الكافي، ج٢، ص٦١٤.

وقال عليه السلام: "**من قرأ القرآن في المصحف مُتّع ببصره، وخُفِّف عن والديه وإن كانا كافرين**"[1].

وفي الحثّ على القراءة في نفس المصحف نكتة جليلة ينبغي الالتفات إليها، وهي أنّه لو اكتُفيَ بالقراءة عن ظهر القلب لهُجرت نسخ الكتاب، وأدّى ذلك إلى قلّتها، ولعلّه يؤدّي أخيراً إلى انمحاء آثارها.

على أنّ هناك آثاراً جزيلة نصّت عليها الأحاديث لا تحصل إلّا بالقراءة في المصحف، منها قوله: "متّع ببصره" وهذه الكلمة من جوامع الكلم، فيراد منها أنّ القراءة في المصحف سبب لحفظ البصر من العمى والرمد، أو يراد منها أنّ القراءة في المصحف سبب لتمتّع القارئ بمغازي القرآن الجليلة ونكاته الدقيقة، لأنّ الإنسان عند النظر إلى ما يروقه من المرئيّات تبتهج نفسه، ويجد انتعاشاً في بصره وبصيرته.

وكذلك قارئ القرآن إذا سرّح بصره في ألفاظه، وأطلق فكره في معانيه وتعمّق في معارفه الراقية وتعاليمه الثمينة يجد في نفسه لذّة الوقوف عليها، ومتعة الطموح إليها، ويشاهد هشّة من روحه وتطلّعاً من قلبه.

فضل القراءة في البيوت

وقد أرشدتنا الأحاديث الشريفة إلى فضل القراءة في البيوت. ومن أسرار ذلك إذاعة أمر الإسلام، وانتشار قراءة القرآن، فإنّ الرجل إذا قرأه في بيته قرأته المرأة، وقرأه الطفل، وذاع أمره وانتشر. أمّا إذا جعل لقراءة القرآن أماكن مخصوصة فإنّ القراءة لا تتهيّأ لكلّ أحد، وفي كلّ وقت، وهذا من أعظم الأسباب في نشر الإسلام. ولعلّ من أسراره أيضاً إقامة الشعار الإلهيّ، إذا ارتفعت الأصوات بالقراءة في البيوت بكرة وعشيّاً، فيعظم أمر الإسلام في نفوس السامعين لما يعروهم من الدهشة عند

[1] هذه الروايات في أصول الكافي، كتاب فضل القرآن، ج٢، ص٥٩٦.

ارتفاع أصوات القراء في مختلف نواحي البلد.

ومن آثار القراءة في البيوت ما ورد في الأحاديث: "**إنّ البيت الّذي يُقرأ فيه القرآن ويُذكر الله تعالى فيه تكثر بركته، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدرّيّ لأهل الأرض، وإنّ البيت الّذي لا يُقرأ فيه القرآن، ولا يُذكر الله تعالى فيه تقلّ بركته، وتهجره الملائكة، وتحضره الشياطين**"[1].

[1] الكافي، ج٢، ص ٤٩٩.

خلاصة

القرآن كلام الله العظيم، ومعجزة نبيّه الكريم وهو الضامن للبشر بنيل الغاية القصوى والسعادة الكبرى في العاجل والآجل. يقول تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[1].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: "**فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه**".

هناك العديد من الآيات الكريمة الّتي تتحدّث عن فضل القرآن، كما أنّ هناك الكثير من الروايات الواردة عن الرسول والعترة الطاهرة عليهم السلام.

إنّ أبناء الأمّة لو رجعوا إلى القرآن في خصوماتهم، وما يلتبس عليهم في عقائدهم وأعمالهم لأوضح لهم السبيل. ولوجدوه الحكم العدل، والفاصل بين الحقّ والباطل.

القرآن هو الناموس الإلهيّ الّذي تكفّل للناس إصلاح الدين والدنيا، وضمن لهم سعادة الآخرة والأولى، فكلّ آية من آياته منبع فيّاض بالهداية ومعدن من معادن الإرشاد والرحمة.

وقد دلّت جملة من الأخبار على فضل القراءة في المصحف على القراءة عن ظهر القلب. كما أرشدتنا الأحاديث الشريفة إلى فضل القراءة في البيوت وتعاهد كتاب الله بالتلاوة الدائمة.

[1] سورة الاسراء، الآية: ٩.

للمطالعة

ما تكلّمَتْ إلّا بالقرآن

قال بعضهم: انقطعت في البادية عن القافلة فوجدت امرأة، فقلت لها: من أنت؟ فقالت ﴿**وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾[1] فسلّمت عليها، فقلت: ما تصنعين ههنا؟ قالت: ﴿**وَمَن يَهْدِ اللَّهُفَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ**﴾[2] فقلت: أمن الجنّ أنت أم من الإنس؟ قالت: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ**﴾[3] فقلت: من أين أقبلت؟ قالت: ﴿**يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾[4] فقلت: أين تقصدين؟ قالت: ﴿**وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ**﴾[5] فقلت: متى انقطعت؟ قالت: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾[6] فقلت: أتشتهين طعاماً؟ فقالت: ﴿**وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ**﴾[7]. فأطعمتها، ثم قلت: هرولي ولا تعجلي، قالت: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾[8]. فقلت: أردفك؟ فقالت: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾[9]. فنزلت فأركبتها، فقالت: ﴿**سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا**﴾[10]. فلما أدركنا القافلة قلت: ألك أحد فيها؟ قالت: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**﴾[11]. ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ**﴾[12].

---

[1] سورة الزخرف، الآية: ٨٩.

[2] سورة الزمر، الآية: ٣٧.

[3] سورة الأعراف، الآية: ٣١.

[4] سورة فصّلت، الآية: ٤٤.

[5] سورة آل عمران، الآية:٩٧.

[6] سورة ق، الآية: ٣٨.

[7] سورة الأنبياء، الآية: ٨.

[8] سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

[9] سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

[10] سورة الزخرف، الآية: ١٢.

[11] سورة ص، الآية: ٢٦.

[12] سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ**﴾[1]. ﴿**يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ**﴾[2]. فصحت بهذه الأسماء، فإذا أنا بأربعة شباب متوجّهين نحوها، فقلت: من هؤلاء منك؟ قالت: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[3]. فلم أتوها قالت: ﴿**يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾[4]. فكافوني بأشياء فقالت: ﴿**وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء**﴾[5]. فزادوا عليّ، فسألتهم عنها.

فقالوا: هذه أمّنا فضّة جارية الزهراء عليها السلام ما تكلّمت منذ عشرين سنة إلّا بالقرآن[6].

---

[1] سورة مريم، الآية: ٢١.

[2] سورة طه، الآيات: ١١ ـ ١٣.

[3] سورة الكهف، الآية: ٤٦.

[4] سورة القصص، الآية: ٢٦.

[5] سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

[6] بحار الأنوار، العلّامة المجلسي، ج ٤٣، ص ٨٦ – ٨٧.

الدرس الخامس: الآداب الظاهريّة لتلاوة القرآن

أهداف الدرس

١- أن يتعرّف الطالب إلى أجر القارئ للقرآن الكريم.

٢- أن يعدّد الآداب الظاهريّة لتلاوة القرآن.

تمهيد

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ**﴾[1].

لا غنى للمسلم عن مصاحبة القرآن وتلاوته، حيث يعيش الإنسان فيه مع الله تعالى ويقتبس من نوره. والتلاوة عبادة يُثاب عليها المؤمن ويؤجر على كلّ حرف يقرأه. ولكن كيف نقرأ القرآن، وكيف نستفيد من آياته؟ هل نقرؤه لمجرّد التلاوة؟ أم نقرأه لنجعله نوراً لنا في ظلمات الجهل والدنيا يسدّد وجهتنا ويحسّن مسلكنا؟ ألم يقرع أسماعنا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "**كم من تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه لأنّه أقام حروفه وضيّع حدوده؟**"[2].

والأجر يتفاوت على قدر ما في التلاوة من تدبّر، وعلى قدر ما يؤدّي التدبّر إلى الغاية المطلوبة والهدف المراد الّذي يشير إليه تعالى في قوله: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء**﴾[3].

---

[1] سورة فاطر، الآية: ٢٩.

[2] البحار، ج٨٩، ص١٨٤.

[3] سورة الزمر، الآية: ٢٣.

فالمطلوب أن تتحوّل تلاوة القرآن والاستماع لآياته إلى تأثّر وخشوع وخضوع لحضرة الباري سبحانه وتعالى يتجلّى في مقام العمل هدياً وسلوكاً والتزاماً بأوامر الله عزَّ وجلَّ ونواهيه.

وقد تعرّفنا في الدرس السابق إلى فضل القرآن وفضل تلاوته، فيا ترى كيف تكون هذه التلاوة؟ وما هي شروطها؟ وكيف نحصّل الغاية القصوى من منافعها؟

القرآن نور

ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "**نوّروا بيوتكم بتلاوة القرآن**"[1].

وفي المواظبة على التلاوة ورد عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: "**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قرأ عشر آيات في ليلة لم يُكتب من الغافلين، ومن قرأ خمسين آية كُتب من الذاكرين، ومن قرأ مائة أية كُتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية كُتب من الخاشعين، ومن قرأ ثلاثمائة آية كُتب من الفائزين، ومن قرأ خمسمائة آية كُتب من المجتهدين، ومن قرأ ألف آية كُتب له قنطار من تبر...**"[2].

ولا شكّ أنّ هذا الأجر المذكور ليس لمن يقرأ القرآن ويمرّ عليه مروراً دون أن يتأثّر به قلباً وقالباً، فإذا عرض عليه عارض من الدنيا نسي القرآن وصاحب القرآن، نعوذ بالله من ذلك، بل الأجر لمن قرأ وتدبّر بتأدّب وتأمّل وعلم أنّ الّذي يخاطبه هو الله سبحانه الّذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. من هنا كان حقيقاً علينا أن نلتفت ونهتمّ ببعض الآداب الّتي ينبغي أن تقترن بتلاوتنا للقرآن، ونرجو من خلالها أن يكون تعبّدنا هذا موضعاً للقبول من حضرة الباري سبحانه وتعالى. وقد ذُكرت آداب متعدّدة لتلاوة القرآن بعضها يُعدّ ظاهريّاً وبعضها باطنيّاً، وفي هذا الدرس ستتعرّف للآداب الظاهريّة، وهي كثيرة، على رأسها:

[1] الكافي، الكليني، ج٢، ص٦١٠.

[2] م.ن، ج٢، ص٦١٢.

١- الطهارة:

والمقصود بالطهارة الخلوّ من الحدث الأكبر والأصغر بالوضوء أو الغسل أو التيمّم بدلاً عنهما. وقد جعل المولى ثواب قراءة القرآن ثواباً مضاعفاً، ففي الحديث: **"من استمع القرآن كتب له بكلّ حرف حسنة ومن قرأ على وضوء كان له بكلّ حرف خمس وعشرون حسنة"**[١].

وقد صرّح الفقهاء بكراهة قراءة ما زاد على سبع آيات للجنب، مضافاً إلى حرمة قراءته آيات السجدة من سور العزائم الأربع: "**العلق**" و"**النجم**" و"**فصّلت**" و"**السجدة**".

٢- تنظيف الفم:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "**إنّي لأحبّ للرجل إذا قام بالليل أن يستاك وأن يشمّ الطيب فإنّ الملك يأتي الرجل إذا قام بالليل حتّى يضع فاه على فيه، فما خرج من القرآن من شيء دخل جوف ذلك الملك**"[٢].

فالفم هو طريق القرآن، ولا يليق بطريق القرآن إلّا أن يكون طيّباً نظيفاً, قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "**نظّفوا طريق القرآن**" قيل: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما طريق القرآن؟ قال: "**أفواهكم**" قيل: بماذا؟ قال: "**بالسواك**"[٣].

وفي حديث آخر: **"طيّبوا أفواهكم بالسواك فإنّها طرق القرآن"**[٤].

٣- استقبال القبلة والإقبال التامّ على التلاوة:

ينبغي لقارىء القرآن أن يستقبل القبلة، ويجلس بتأدّب وخشوع، ويقبل على التلاوة متفرّغاً لها، وقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام:

---

[١] الفصول المهمّة، الحر العاملي، ج٣، ص٣٢٠.

[٢] المحاسن، ص٥٥٩، والبحار، ج٧٧، ص٣٤٣.

[٣] م.ن. ص٥٥٨.

[٤] ميزان الحكمة، ج٢، ص١٣٩٧.

"قارىء القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء: قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خالٍ. فإذا خشع لله قلبه فرّ منه الشيطان الرجيم"[1].

٤- البدء بالاستعاذة:

قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[2].

من كمال الأدب أن يشرع القارئ في القراءة بالاستعاذة، ويقصد بها تطهير القلب من تلوّثات الوسوسة الصارفة عن ذكر الله تعالى.

وختم القراءة بقوله: صدق الله العليّ العظيم. ويدعو بالمأثور في بدء التلاوة وبعد الفراغ منها كما كان يفعل الأئمّة عليهم السلام.

٥- قراءة القرآن في المصحف:

وفي بعض الروايات ما يفيد أفضليّة قراءة القرآن مطالعة على قراءته حفظاً. وتظهر هذه الأفضليّة في الآثار المترتّبة، وقد ذكرنا في الدرس السابق بعضاً منها ونضيف ما ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: **"أفضل عبادة أمّتي تلاوة القرآن نظراً"**[3].

٦- الترتيل بصوت حسن:

قال تعالى: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا**﴾[4].

والترتيل هو بيان الحروف وإظهارها وحفظ الوقوف.

والمراد بحفظ الوقوف أن لا يقف القارئ كيفما كان، بل يقف حيث يكون الوقف حسناً. والمراد ببيان الحروف أن يُخرج الحروف كما ينبغي من جهر وهمس وإطباق واستعلاء على ما ذكره علماء التجويد.

---

[1] مستدرك الوسائل، ج٤، ص٢٤١.

[2] سورة النحل، الآية: ٩٨.

[3] المحجة البيضاء، ج٢، ص٢٣١.

[4] سورة المزمل: الأية ٤.

والترتيل كما في بيان الإمام الصادق عليه السلام هو: **"أن تتمكّث فيه وتحسّن به صوتك"**[1].

فتقرأ بإمعان من غير استعجال بحيث لو أراد السامع أن يعدّ الحروف لأوشك أن يعدّها. وتحسّن به الصوت في خشوع وخشية.

وقال عليه السلام أيضاً: **"زيّنوا القرآن بأصواتكم"**[2].

والمقصود من حسن الصوت ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **"إنّ من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الّذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله"**[3].

ويستفاد من الروايات أنّ الصوت الحسن يترك أثراً في قلب القارئ والمستمع على حدّ سواء، الأمر الّذي يساهم في تليين القلوب القاسية، فإنّ كلام الله شفاء من كل مرض قلبيّ.

[1] بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٩١.
[2] ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٥٢٥.
[3] م. ن. ج٣، ص٢٥٢٥.

خلاصة

لا غنى للمسلم عن مصاحبة القرآن وتلاوته، حيث يعيش الإنسان فيه مع الله تعالى ويقتبس من نوره. والتلاوة عبادة يثاب عليها المؤمن ويؤجر على كلّ حرف يقرأه. فللقراءة القرآنيّة آداب لا بدّ أن نلتزم بها حتّى نحصّل أقصى درجات الأجر من الباري سبحانه وتعالى. وقد ذُكرت آداب متعدّدة لتلاوة القرآن بعضها يُعدّ ظاهريّاً وبعضها باطنيّاً.

والآداب الظاهريّة كثيرة، على رأسها:

١- الطهارة.

٢- تنظيف الفم.

٣- استقبال القبلة والإقبال التام على التلاوة.

٤- البدء بالاستعاذة.

٥- قراءة القرآن في المصحف.

٦- الترتيل بصوت حسن.

للمطالعة

القرآن وأسرار الخليقة

أخبر القرآن الكريم في غير واحدة من آياته عمّا يتعلّق بسنن الكون، ونواميس الطبيعة، والأفلاك، وغيرها ممّا لا سبيل إلى العلم به في بدء الإسلام إلّا من ناحية الوحي الإلهيّ. وبعض هذه القوانين وإن علم بها اليونانيّون في تلك العصور أو غيرهم ممّن لهم سابق معرفة بالعلوم، إلّا أنّ الجزيرة العربيّة كانت بعيدة عن العلم بذلك. وإنّ فريقاً ممّا أخبر به القرآن لم يتّضح إلّا بعد توفّر العلوم، وكثرة الاكتشافات. وهذه الأنباء في القرآن كثيرة.

وقد أخذ القرآن بالحزم في إخباره عن هذه الأمور، فصرّح ببعضها حيث يحسن التصريح، وأشار إلى بعضها حيث تحمد الإشارة، لأنّ بعض هذه الأشياء ممّا يستعصي على عقول أهل ذلك العصر، فكان من الرشد أن يشير إليها إشارة تتّضح لأهل العصور المقبلة حين يتقدّم العلم، وتكثر الاكتشافات.

ومن هذه الأسرار الّتي كشف عنها الوحي السماويّ، وتنبّه إليها المتأخّرون ما في قوله تعالى: ﴿**وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ**﴾[1].

فقد دلّت هذه الآية الكريمة على أن كلّ ما ينبت في الأرض له وزن خاصّ، وقد ثبت أخيراً أنّ كل نوع من أنواع النبات مركّب من أجزاء خاصّة على وزن مخصوص، بحيث لو زيد في بعض أجزائه أو نقص لكان ذلك مركّباً آخر. وإن نسبة بعض الأجزاء إلى بعض من الدقّة بحيث لا يمكن ضبطها تحقيقاً بأدقّ الموازين المعروفة للبشر.

ومن الأسرار الغريبة الّتي أشار إليها الوحي الإلهيّ حاجة إنتاج قسم من الأشجار والنبات إلى لقاح الرياح. فقال سبحانه: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ**﴾[2].

[1] سورة الحجر، الآية: ١٩.

[2] سورة الحجر، الآية: ٢٢.

فإنّ المفسّرين الأقدمين وإن حملوا اللّقاح في الآية الكريمة على معنى الحمل، باعتبار أنّه أحد معانيه، وفسّروا الآية المباركة بحمل الرياح للسحاب، أو المطر الّذي يحمله السحاب، ولكنّ التنبيه على هذا المعنى ليس فيه كبير اهتمام، ولا سيّما بعد ملاحظة أنّ الرياح لا تحمل السحاب، وإنّما تدفعه من مكان إلى مكان آخر.

والنظرة الصحيحة في معنى الآية بعد ملاحظة ما اكتشفه علماء النبات تفيدنا سرّاً دقيقاً لم تدركه أفكار السابقين، وهو الإشارة إلى حاجة إنتاج الشجر والنبات إلى اللّقاح، وأنّ اللّقاح قد يكون سببه الرياح، وهذا كما في المشمش والصنوبر والرمّان والبرتقال والقطن، ونباتات الحبوب وغيرها، فإذا نضجت حبوب الطلع انفتحت الأكياس، وانتثرت خارجها محمولة على أجنحة الرياح فتسقط على مياسم الأزهار الأخرى عفواً.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أنّ سنّة الزواج لا تختصّ بالحيوان، بل تعمّ النبات بجميع أقسامه بقوله: ﴿**وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**﴾[1].

﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾[2].

ومن الأسرار الّتي كشف عنها القرآن هي حركة الأرض، فقد قال عزَّ من قائل: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا**﴾[3].

تأمّل كيف تشير الآية إلى حركة الأرض إشارة جميلة لم تتّضح إلّا بعد قرون، وكيف تستعير للأرض لفظ المهد الّذي يُعمل للرضيع، يهتزّ بنعومة لينام فيه مستريحاً هادئاً, وكذلك الأرض مهد للبشر وملائمة لهم من جهة حركتها الوضعيّة والانتقاليّة. وكما أنّ تحرّك المهد لغاية تربية الطفل واستراحته، فكذلك الأرض،

[1] سورة الرعد، الآية: ٣.

[2] سورة يس، الآية: ٣٦.

[3] سورة طه، الآية: ٥٣، وسورة الزخرف، الآية: ١٠.

فإنّ حركتها اليوميّة والسنويّة لغاية تربية الإنسان بل وجميع ما عليها من الحيوان والجماد والنبات. تشير الآية المباركة إلى حركة الأرض إشارة جميلة، ولم تصرّح بها لأنّها نزلت في زمان أجمعت عقول البشر فيه على سكونها، حتّى أنّه كان يعدّ من الضروريّات الّتي لا تقبل التشكيك.

ومن الأسرار الّتي كشف عنها القرآن قبل أربعة عشر قرناً: وجود قارّة أخرى. فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**﴾[1].

وهذه الآية الكريمة قد شغلت أذهان المفسّرين قروناً عديدة، وذهبوا في تفسيرها مذاهب شتّى. فقال بعضهم: المراد مشرق الشمس ومشرق القمر ومغرباهما، وحمله بعضهم على مشرقَيّ الصيف والشتاء ومغربيّهما. ولكنّ الظاهر أنّ المراد بها الإشارة إلى وجود قارّة أخرى تكون على السطح الآخر للأرض يلازم شروق الشمس عليها غروبها عنّا، وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿**يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾[2].

فإنّ الظاهر من هذه الآية أنّ البعد بين المشرقين هو أطول مسافة محسوسة فلا يمكن حملها على مشرقَي الشمس والقمر ولا على مشرقي الصيف والشتاء، لأنّ المسافة بين ذلك ليست أطول مسافة محسوسة، فلا بدّ من أن يراد بها المسافة الّتي ما بين المشرق والمغرب. ومعنى ذلك أن يكون المغرب مشرقاً لجزء آخر من الكرة الأرضيّة ليصحّ هذا التعبير، فالآية تدلّ على وجود هذا الجزء الّذي لم يُكتشف إلّا بعد مئات من السنين من نزول القرآن.

فالآيات الّتي ذكرت المشرق والمغرب بلفظ المفرد يراد منها النوع كقوله تعالى: ﴿**وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ**﴾[3].

[1] سورة الرحمن، الآية: ١٧.

[2] سورة الزخرف، الآية: ٣٨.

[3] سورة البقرة، الآية: ١١٥.

والآيات الّتي ذكرت ذلك بلفظ التثنية يراد منها الإشارة إلى القارّة الموجودة على السطح الآخر من الأرض.

والآيات الّتي ذكرت ذلك بلفظ الجمع يراد منها المشارق والمغارب باعتبار أجزاء الكرة الأرضيّة كما نشير إليه[1].

[1] البيان في تفسير القرآن، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، ص٧٠ – ٧٤.

الدرس السادس: الآداب الباطنيّة لتلاوة القرآن

أهداف الدرس

١- أن يتعرّف الطالب إلى الآداب الباطنيّة لتلاوة القرآن.

تلاوة القرآن حقّ تلاوته:

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾[1].

فللقرآن حقّ علينا وينبغي أن نوفيه حقّه برعاية جملة من الآداب أثناء تلاوته والاستماع إليه. وفي تفسير الآية يقول الإمام الصادق عليه السلام: "**يرتّلون آياته ويتفهّمون معانيه ويعملون بأحكامه ويرجون وعده ويخشون عذابه ويتمثّلون قصصه ويعتبرون أمثاله ويأتون أوامره ويجتنبون نواهيه..**"[2].

وأفضل التلاوة تلك الّتي تحقّق الهدف القرآنيّ الأوّل وهو الهداية، يقول تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[3].

ولحصول الهداية هناك أمور ينبغي مراعاتها، أهمّها:

١- الإخلاص في القراءة:

من الآداب المفيدة في تلاوة القرآن الكريم الإخلاص. وقد وردت بذلك روايات كثيرة. منها ما رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام: "**قرّاء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتّخذه بضاعة واستدرّ به الملوك واستطال به على الناس. ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيّع حدوده وأقامه إقامة القدح، فلا كثّر الله هؤلاء من حملة**

[1] سورة البقرة، الآية: ١٢١.

[2] ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٥٢٦.

[3] سورة البقرة، الآية: ٢.

القرآن. ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله وأظمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجافى به عن فراشه فبأولئك يدفع الله العزيز الجبّار البلاء، وبأولئك يديل الله من الأعداء، وبأولئك ينزّل الله الغيث من السماء، فوالله لَهؤلاء في قرّاء القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر"[1].

٢- التدبّر في القرآن:

قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[2].

فالقراءة الّتي لا تدبّر فيها لا خير فيها. قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾[3].

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "**إنّي لأعجب كيف لا أشيب إذا قرأت القرآن**"[4].

وجاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: "**ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقّه**"[5].

وعنه عليه السلام أنّه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل: جُعلت فداك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟ فقال عليه السلام: "**إنّه كان يعرف تفسير قوله تعالى: إنّ الّذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد..**"[6].

وعن الزهريّ قال سمعت عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: "**آيات القرآن خزائن العلم، فكلّما فتحت خزائنه فينبغي لك أن تنظر فيها**"[7].

---

[1] أصول الكافي، ج٢، ص٦٠٤.

[2] سورة محمد، الآية:٢٤.

[3] سورة الحديد، الآية: ١٦.

[4] ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٥٣٢.

[5] بحار الأنوار، ج٢، ص٤٩.

[6] قريب منه في تفسير القمي، ج٢، ص١٤٧.

[7] بحار الأنوار، ج٩٢، ص٢١٩.

٣- التفكّر:

من الآداب المهمّة لقراءة القرآن التفكّر. وقد كثرت الدعوة إلى التفكّر في القرآن الشريف.

قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[١].

وقال تعالى: ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٢].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

والروايات أيضاً في التفكّر كثيرة، فقد نُقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت الآية الشريفة: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ**﴾[٣].

قال صلى الله عليه وآله وسلم: "**ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها**"[٤].

٤- التأثّر والخشية:

قال تعالى: ﴿**قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾[٥].

وهذه أحوال المستمع لتلاوة القرآن المتدبّر فيه فكيف بمن يتلوه بنفسه؟

قال تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾[٦].

٥- البكاء والحزن:

فقد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: "**من قرأ القرآن ولم يخضع لله ولم يرقّ قلبه ولا يكتسي حزناً ووجلاً في سرّه، فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى، فانظر كيف تقرأ كتاب ربّك ومنشور ولايتك، وكيف تجيب أوامره ونواهيه وكيف تمتثل حدوده؟**"[٧].

---

[١] سورة النحل، الآية: ٤٤.

[٢] سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

[٣] سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

[٤] زبدة البيان، المحقّق الأردبيلي، ص١٤٠.

[٥] سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧ ـ ١٠٩.

[٦] سورة الحشر، الآية: ٢١.

[٧] البحار، ج٨٢، ص٤٣.

وورد في الخبر: **"اقرأوا القرآن بالحزن"**[1].

وفي نهج البلاغة: **"الله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم"**[2].

والقرآن كلام الحقّ ومن الأدب حين نقرأ هذا الكلام أن نكبره ونعظّمه, فلا نستهين بأوامره ونواهيه وإنذاره ووعيده وما ينبيء عنه من حقائق وأسرار.

فإنّ عظمة الله تعالى وقدرته المطلقة تجلّت لعباده في القرآن الكريم. ومن كمال الأدب ونحن نقرأ القرآن أن نستحضر الحزن في قلوبنا والدمعة في عيوننا، والخوف والشفقة في نفوسنا كما هو حال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حين كان يستمع إلى القرآن الكريم، فقد كانت عيناه تفيضان بالدمع. وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **"ما من عين فاضت من قراءة القرآن إلّا قرّت يوم القيامة"**[3].

ومن لم يجد في نفسه خشية وانكساراً فليتباكَ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **"اقرأوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا"**[4].

وعن أمير المؤمنين في وصف **المتّقين "يُحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلّعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنّوا أنّها نُصب أعينهم، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أصول آذانهم"**[5].

٦- التطبيق:

ومن الآداب المهمّة لقراءة القرآن الّتي تنيل الإنسان نتائج كثيرة واستفادة غير محدودة: التطبيق.

فمن أراد أن يأخذ من القرآن الشريف الحظّ الوافر فلا بدّ له أن يطبّق كلّ آية شريفة على حالات نفسه حتّى يستفيد استفادة كاملة، مثلاً يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا**

[1] ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٥٢٨.
[2] نهج البلاغة، ج٣، ص٧٧.
[3] ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٥٢٩.
[4] الأمالي، السيد المرتضى، ج١، ص٢٥.
[5] نهج البلاغة، خطبة المتقين، ج٢، ص١٦١.

الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

فلا بدّ للسالك أن يلاحظ هذه الأوصاف الثلاثة منطبقة عليه، وهل قلبه يَجِلُ إذا ذُكر الله ويخاف؟ وإذا تُليت عليه الأيات الشريفة هل يزداد إيماناً في قلبه؟ وهل اعتماده وتوكّله على الله تعالى أم أنّه محروم من ذلك؟

فإذا كان محروماً فليسعَ لتحصيل هذه الصفات. وهكذا كلّ آية يمرّ عليها يطبّقها خارجاً، فالقرآن كتاب تطبيق لا كتاب ترتيل فحسب.

فكما أنّ خُلُق الرسول كان القرآن، فينبغي على القارئ المؤمن أن يكون خُلُقه القرآن.

القرآن يخاطبنا

وعلى كلّ مؤمن أن يستصحب في وعيه دائماً أنّ قضايا القرآن ومفاهيمه ومواعظه ليست من قضايا الماضي الّذي كان، إنّما هي قضيّة اللّحظة وكلّ لحظة، إنّها قضيّتنا نحن، والخطاب فيها هو لنا نحن بالذّات لا لقوم آخرين كانوا، أو لغيرنا، بل لنا ولكلّ فرد فينا. وينبغي أن يستشعر القارىء للقرآن أنّه هو المخاطَب بالذّات وأنّ القرآن ليس كتاب مطالعة يقرأ فيه عن عصر من التاريخ فات.

وعندما يتفكّر القارئ للقرآن في كلّ آية من آياته الشريفة ويطبّق مفادها على حاله ونفسه فإنّه يرفع نقصانه بواسطة هذا التطبيق ويشفي أمراضه به. فعندما يقرأ مثلاً قصّة إبليس وطرده من مقام القرب مع تلك السجدات والعبادات الطويلة ويتساءل لماذا كان ما كان؟ يجد أنّ مقام القرب الإلهيّ هو مقام المطهّرين، ومع التلبّس بالأوصاف والأخلاق الشيطانيّة لا يمكن القدوم إلى ذلك القرب، فيبادر إلى التخلّص منها ليحصّل مقامَ القرب، بحيث نشعر دائماً بحياة القرآن وأنّه حيّ دائماً، ليهب الحياة إلى قلوبنا وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدس الله تعالى.

[1] سورة الأنفال، الآية: ٢.

مهجوريّة القرآن الكريم

يقول تعالى: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾[1].

إنّ مهجوريّة القرآن لها مراتب، ولعلّنا متّصفين بالعمدة منها. أترى أنّنا إذا جلّدنا المصحف الشريف جلداً نظيفاً وقيّماً أو إذا قرأناه أو استخرنا به وقبّلناه ووضعناه على أعيننا، لا نكون هاجرين له؟ أترى إذا صرفنا غالب عمرنا في تجويده والاهتمام في جهاته اللغويّة والبيانيّة والبديعيّة، ما اتّخذناه مهجوراً؟ هل أنّنا إذا تعلّمنا القراءات المختلفة ما اتخذناه مهجوراً؟

إنّ عمدة هجر القرآن هي عدم تطبيقه في حياتنا الخاصّة والعامّة. ونحن للأسف قد نكون متّصفين بهذه المرتبة من الهجر، حيث لا نأخذ تعاليم القرآن في حسباننا!.

خلاصة

للقرآن حقّ علينا وينبغي أن نوفّيه حقّه برعاية جملة من الآداب أثناء تلاوته والاستماع إليه، ومن هذه الآداب: الإخلاص والتدبّر، فالقراءة الّتي لا تدبّر فيها لا خير فيها، ثم يأتي التفكّر فالتأثّر والخشية من الله تعالى فالبكاء والحزن. ولعلّ أهم آداب القرآن تطبيقه على حياتنا كما كان رسول الله يوصف بأنّ خُلُقه القرآن. فإنّ خُلُقنا ينبغي أن يكون مشابهاً. وإنّ عمدة هجر القرآن هو عدم تطبيقه في حياتنا الخاصّة والعامّة. ونحن للأسف قد نكون متصفين بهذه المرتبة من الهجر، حيث لا نأخذ تعاليم القرآن في حسباننا!.

[1] سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

للمطالعة

النبع الفيّاض

يقول الإمام الخميني قدس سره "أوصي الأخوة الأعزاء أن لا يغفلوا... عن الاستئناس بالقرآن الكريم، هذه الصحيفة الإلهيّة وكتاب الله الهادي، فكلّ ما عند المسلمين وما سيكون عندهم خلال عصور التاريخ الماضية والقادمة إنّما هو من البركات المغدقة لهذا الكتاب المقدّس. وبهذه المناسبة أطلب من كلّ العلماء الأعلام وأبناء القرآن والعلماء العظام أن لا يغفلوا عن هذا الكتاب المقدّس الّذي فيه تبيان كلّ شيء،...

والآن فإنّ الصورة المدوّنة لهذا الكتاب المأخوذ عن لسان الوحي بعد النزول قد وصلت إلى أيدينا كاملة دون زيادة حرف أو نقصان حرف، فالحذر الحذر من هجره لا سمح الله.

نعم، الأبعاد المختلفة لهذا الكتاب بكلّ آفاقها ليست في متناول البشر العاديّين لكن على أهل المعرفة والتحقيق في الفروع المختلفة أن ينهلوا بقدر علمهم ومعرفتهم وكفاءاتهم من هذا الكنز العرفانيّ الإلهيّ الفيّاض والبحر الموّاج النازل على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ويقدّموه بتعبيرات مختلفة قريبة للأذهان إلى الآخرين... والمتّقون التوّاقون إلى الهداية عليهم أن يحملوا بارقة ممّا أخذوه من نور التقوى عن هذا النبع الفيّاض بالهدى للمتّقين إلى العشّاق الوالهين إلى الهداية الإلهيّة.

وأخيراً على كلّ مجموعة من العلماء الأعلام والمفكّرين العظام أن يشمّروا عن ساعد الجدّ لتناوُلِ بعدٍ من الأبعاد الإلهيّة لهذا الكتاب المقدّس، ويقدّموا بأقلامهم ما يحقّق آمال عشّاق القرآن.

ولتنفقوا أوقاتكم في الأبعاد السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والعسكريّة

والثقافيّة في القرآن، وما فيه من مسائل الحرب والسلم، ليتبيّن أنّ هذا الكتاب مصدر كلّ شيء من عرفان وفلسفة وأدب وسياسة...

فيا أيّتها الحوزات العلميّة والمحافل الدراسيّة الجامعيّة، انهضي وأنقذي القرآن من شّر الجاهلين المتنسّكين والعلماء المتهتّكين الّذين يهتكون حرمة القرآن عن عمد وجهل. وأقول عن جدّ لا عن مجاملة إنّي آسف على ما فات من عمري في خطأ وجهل. وإنّكم يا أبناء الإسلام الغيارى في الحوزات والجامعات ابعثوا في الحوزات والجامعات يقظة تدفعها إلى الاهتمام بشؤون القرآن وأبعاده المختلفة الكثيرة.

اجعلوا تدريس القرآن نصب أعينكم في جميع أبعاده، كي لا تندموا وتأسفوا لا سمح الله على ما فات من شبابكم حين يهجم عليكم ضعف الشيب في آخر العمر، مثل كاتب هذه السطور"[1].

[1] صحيفة الإمام الخميني قدس سره، ج٢٠، ص٨١.

الدرس السابع: الموانع والحجب بين المستفيد والقرآن

أهداف الدرس

١- معرفة الحجب الظَّلمانية التي تحول بين الإنسان والاستفادة من كتاب الله.

٢- التعرُّف على أهمّ هذه الحجب والموانع التي تصدُّ عن سبيل كتاب الله.

٣- الاستفادة من معرفة الحجب والموانع في عملية رفعها وإزالتها.

مقدّمة:

إذا صارت عظمة كتاب الله معلومةً من جميع الجهات، وانفتحَ على الإنسان طريقُ الاستفادة الحقيقية منه، عندها ينبغي على المتعلّم والمستفيد من كتاب الله أنْ يجري أدباً آخر من الآداب المهمَّة حتَّى تحصل الاستفادة التَّامة، وهو رفع الموانع والعوائق الأساسية التي تحول دون الاستفادة الكاملة منه. وهذه الموانع نعبّر عنها بالحجب بين المستفيد والقرآن، وهذه الحجب كثيرة نشير إلى بعضها:

حجاب رؤية النَّفس مستغنيةً:

من الحُجب العظيمة التي تحول بين الإنسان وبين الاستفادة من كتاب الله العزيز؛ حجابُ رؤية النفس مستغنية عن كتاب الله، حيث يرى المتعلّم نفسه بسبب هذا الحجاب مستغنٍ عنه أو غير محتاجٍ للاستفادة منه. وهذا يُعتبر من أكبر وأخطر مكائد الشَّيطان الذي يُزيّن للإنسان دائماً الكمالات الموهومة، ويرضيه ويقنعه بما هو عليه، وما في يديه من الكمالات المحدودة الفانية والزائلة، ويسقط من عينه كلّ ما ليس بحوزته.

مثلاً: قد يقنع الشيطان أهل التجويد بذاك العلم الجزئي ويزيّنه في أعينهم ويسقط سائر العلوم من أعينهم ويطبّق معنى "**حملة القرآن**" عليهم، ويحرمهم من فهم الكتاب الإلهيّ النوراني ومن الاستفادة منه. ويمكن أن يُرضيَ أصحاب الأدب

واللغة بتلك الصُّورة اللغوية والظاهريَّة الفاقدة للّب، ويصوّرَ لهم أنَّ جميع شؤون القرآن موجودة عندهم. وقد يشغل أهل التفاسير المتعارفة بوجوه القراءات، والآراء المختلفة لأصحاب اللغة، ووقت النزول، وشأن النزول، وكون الآيات مكيَّة أو مدنيَّة وتعدادها، وتعداد الحروف وأمثال تلك الأمور...

فعلى كلِّ باحث عن الاستفادة الحقيقية من كتاب الله، أنْ يخرقَ جميع هذه الحجب، فلا يقف عندها بل عليه أنْ ينظرَ إلى ما هو أبعد من هذه الأمور، ولا يقنع عند حدّ معيّن من القرآن الشّريف لكي لا يتأخّر عن قافلة السالكين فيُحْرَمَ من الدَّعوات الإلهيّة للاستفادة من هذه المأدبة السماوية.

والإشارة إلى هذا المعنى في القصص القرآنيّة كثيرة. فالنبي موسى كليم الله عليه السلام مع ما له من المقام العظيم في النُّبوَّة، لم يقتنع بذلك المقام ولم يتوقّف عند مقام علمه الشَّامخ، بل بمجرَّد أن التقى بإنسان كامل كالخضر عليه السلام قال له بمنتهى التواضع والخضوع: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾[1] وصار ملازماً لخدمته حتَّى أخذ منه العلومَ التي احتاج إليها.

والنبي إبراهيم عليه السلام لم يقتنع بمقام الإيمان والعلم الشامخ الخاص بالأنبياء فقال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى**﴾[2]، فأراد أن يرتقي من مقام الإيمان القلبي إلى مقام الاطمئنان الشهودي. وهناك ما هو أعظم من ذلك حيث يأمر الله تبارك وتعالى نبيّه الخاتم محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم وهو أعرف خلق الله على الإطلاق في الآيةِ الكريمةِ الشّريفةِ : ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[3] بأنْ لا يقف عند حدّ في طلب العلوم الربّانية والاستزادة منها. فهذه الأوامر الإلهيّة ونقل قصص الأنبياء وغيرها، إنّما هي لأجلِ أنْ يتنبَّهَ النَّاسُ ويستيقظوا من نوم الغفلة الذي يتخبَّطون فيه.

[1] سورة الكهف، الآية: ٦٦.

[2] سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

[3] سورة طه، الآية: ١١٤.

حجاب الآراء الفاسدة والعقائد الباطلة:

ومن الحجب المانعة أيضاً التي تصدّ عن الاستفادة الصَّحيحة من القرآن الكريم, حجاب الآراء الفاسدة والعقائد الباطلة، التي قد يكون سببها سوء استعداد الشخص، والأغلب أنَّ سبَبَها الأساسيَّ هو التبعيَّةُ والتَّقليدُ الأعمى للغير.

وهذا الحجاب من الحجب الرَّئيسة التي تحجُبُ الإنسان عن معارف القرآن وحقائقه النُّورانيَّة، فمثلاً إذا رسخ في قلوبنا اعتقادٌ ما بمجرّد الاستماع إلى الأب أو الأم أو بعض الجهلة، فإنَّ مثل هذه العقيدة قد تكون حجاباً بيننا وبين الآيات الشّريفة الإلهيّة. وإذا وردت آلاف الآيات والرِّوايات التي تخالف تلك العقيدة، فإمّا أن نصرفها عن ظاهرها أو أن لا ننظر فيها نظر الفهم. والأمثلة فيما يرجع إلى العقائد والمعارف كثيرة، نشير إلى واحدةٍ منها من باب المثال حيث إنَّه أسهل للفهم.

إنَّ تلك الآيات الكثيرة الراجعة إلى معرفته ولقائه، والرِّوايات الكثيرة في هذا الموضوع، والإشارات العديدة والكنايات والتصريحات المتنوّعة في أدعية ومناجاة الأئمة عليهم السَّلام، مثل هذه الشواهد الكثيرة بمجرّد ما تصطدم بتلك العقيدة التي انتشرت بين عوام النَّاس أنّ طريق معرفة الله مسدود بشكل كامل أمامنا نحن البشر العاديون، حيث يقيسون باب معرفة الله ومشاهدة جماله على باب الممنوع بل والممتنع في التفكُّر بذاته المقدّسة. فإمّا أن يؤوّلوا ويوجّهوا تلك الآيات والرِّوايات، وكذلك الإشارات والكنايات والتصريحات في أدعية الأئمة ومناجاتهم، وإمّا ألّا يدخلوا في هذا الميدان أصلاً ولا يفتحوا على أنفسهم تلك المعارف التي هي قرّة عين الأنبياء والأولياء. وممّا يوجب الأسف الشَّديد لأهل الله، أنَّ باباً من المعرفة الذي يمكن أن يقال أنَّه غاية بعثة الأنبياء ومنتهى مطلوب الأولياء، قد سدّوه على النَّاس حتَّى صار التفوّه به، عند البعض كفراً محضاً ومحض الزندقة.

حجاب شبهة التفسير بالرأي:

ومن الحجب الغليظة المانعة من الاستفادة من هذه الصَّحيفة النُّورانية، الاعتقاد بأنّه ليس لأحدٍ حقُّ الاستفادة من القرآن الشّريف إلا من خلال ما كتبه المفسّرون وفهموه. فقد اشتبه على النَّاس التفكُّر والتدبّر في الآيات الشّريفة بالتفسير بالرأي الممنوع. ومن خلال هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عارياً من جميع فنون الاستفادة واتَّخذوه مهجوراً كُلياً.

إنَّ من المحتمل بل من المظنون أن التفسير بالرأي المنهي عنه هو الراجع إلى آيات الأحكام الشرعية التي تقصر عنها أيدي الآراء والعقول، والتي لا بد وأن تؤخذ بصرف التعبّد والانقياد من خزّان الوحي ومهابط ملائكة الله، لا إلى آيات المعارف والعلوم العقلية والأخلاقية. كما أنّ أكثر الرِّوايات في هذا الباب وردت في مقابل فقهاء العامة الذين كانوا يريدون أن يفهموا دين الله بعقولهم وقياساتهم. وما في بعض الرِّوايات الشّريفة من أنَّه: **"ليس شيء أبعد عن عقول الرجال من تفسير القرآن"**[1]، وكذلك الرواية الشّريفة: "**إنّ دين الله لا يصاب بالعقول**"[2] تشهدُ بأنَّ المقصود من دين الله الأحكام التعبّديّة للدين، وإلا فباب إثبات الصانع والتَّوحيد والتقديس واثبات المعاد والنُّبوَّة بل مطلق المعارف حقّ مطلق للعقول ومن مختصَّاتها.

حجابُ الذُّنوب والمعاصي:

ومن الحجب المانعة من فهم القرآن الشّريف، ومن الاستفادة من معارف هذا الكتاب السَّماويّ ومواعظه، حجاب المعاصي والذُّنوب الحاصلة من الطغيان وعصيان ربّ العالمين, التي تحجب القلب عن إدراك الحقائق الإلهيّة العزيزة، يقول تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾.

[1] بحار الأنوار، ج٨٩، ص٩٥.

[2] بحار الأنوار، ج٢، ص٣٠٣.

فلكلِّ عملٍ من الأعمال الصالحة أو السيّئة صورةٌ وتأثيرٌ في الآخرة وعالم الملكوت تتناسب معه، وله صورةٌ أيضاً وتأثيرٌ في النَّفس الإنسانيَّة وملكوتها، تحصلُ بواسطتها إمّا النُّورانيةُ في النَّفس، فيكون القلب مطهَّراً ومنوَّراً، وفي هذه الحالة تكون النَّفس كالمرآة المصقولة الصافية، اللائقة للتجليات الغيبيّة وظهور الحقائق والمعارف فيه. وإمّا أن يصير باطن النفس بهذه الأعمال ظلمانياً وخبيثاً، وفي هذه الصُّورة يكون القلب كالمرآة المدنّسة، فلا تنعكس فيها المعارف الإلهيّة ولا الحقائق الغيبيّة. فيقع قلب الإنسان في هذه الحالة وبالتّدريج تحت سلطة الشَّيطان، ويكون إبليس اللّعين هو المتصرِّفُ في مملكة روحه. ويقع السّمع والبصر وسائر القوى أيضاً تحت تصرّف ذاك الخبيث، وينسدُّ السَّمعُ بالكلّية عن المعارف والمواعظ الإلهيّة. ولا ترى العين الآيات الباهرة الإلهيّة، وتعمى عن الحقّ وآثاره وآياته، ولا يتفقّهُ القلب في الدِّين ويحرم من التفكُّر في آيات الحقّ وتذكّرها، كما قال الحقّ تعالى: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾[1]. فيكون نظره إلى العالم كنظر الأنعام المحرومة من نعمة التفكُّر والتدبّر، ويصبح قلبه كقلوب الحيوانات التي لا نصيب لها من التفكُّر والتذكّر، بل يمكن أنْ تزدادَ حالةُ الغفلة والاستكبار فيه يوماً بعد يوم من جرّاء عدم النظر في الآيات الإلهيّة وسماع المواعظ الربّانية، فيغدو أرذل وأضلّ من الحيوان.

حجاب حب الدُّنيا:

ومن الحجب الغليظة التي هي مانع سميك بيننا وبين معارف القرآن ومواعظه, حجابُ حبِّ الدُّنيا. حيث يصرف القلب تمام همّته في الدُّنيا فتكون وجهة القلب تماماً إلى الدُّنيا ويغفل القلب بواسطة هذه المحبّة عن ذكر الله ويعرض عنه. وكلّما ازداد التعلّق بالدُّنيا وشهواتها ازداد حجاب القلب والساتر ضخامة. وربما تغلَّبت

[1] سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

هذه العلاقة على القلب ويتسلّط سلطان حبُّ الجاه والشرف على القلب فينطفئ نور فطرة الله تماماً، وتُغلقُ أبواب السعادة على الإنسان. ولعلّ المراد من إقفال القلوب المذكورة في الآية الشّريفة: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[1] هو هذه الأقفال والأغلال والعلائق الدنيوية.

[2]

فمن أراد أن يستفيدَ من القرآن ويأخذَ نصيبه من المواعظ الإلهيّة لابدّ وأن يطهّرَ قلبه من هذه الأرجاس، ويزيل أدران المعاصي القلبية والاشتغال بغير الله من القلب، لأنّ القلوب غير المطهّرة ليست حرماً لهذه الأسرار كما قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾[3] فكما أنّ غير المطهّر بالطهارة الظاهريَّة ممنوع عن ظاهر هذا الكتاب ومسّه في العالم الظاهر تشريعاً وتكليفاً، كذلك من كان ملوّثاً بأرجاس التعلّقات الدنيوية والمحدودة والفانية ممنوع من معارفه ومواعظه وباطنه وسرّه قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾. فغير المتّقي محروم من أنوار القرآن ومواعظه وعقائده الحقّة. والآية الشريفة التالية تكفي لأهل اليقظة بشرط التدبّر فيها، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿**قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[4].

---

[1] سورة محمد، الآية: ٢٤.

[2] سورة الواقعة، الآيات: ٧٧ ـ ٧٩.

[3] سورة البقرة، الآية: ٢.

[4] سورة المائدة، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

خلاصة

١- إزالةُ الحجب والموانع بين المستفيد والقرآن شرط أساسي لتحقيق الاستفادة الكاملة من كتاب الله.

٢- من الحجب التي تصدُّ عن سبيل القرآن، الشُّعور بالاستغناء عن كتاب الله، وعدم الحاجة الفعلية والضرورية إليه في مسيرة الإنسان الإيمانية والتكاملية.

٣- من الحجب التي تحولُ دون الاستفادة من القرآن الكريم الشُّبهاتُ العقائديَّة والاعتقادات الخاطئة المتعلِّقةُ بالقرآن فهماً وتأويلاً وتفسيراً.

٤- من الحجب التي تمنع من فهم حقائق القرآن والاستفادة منه أيضاً، تلوّث باطن الإنسان بالمعاصي والذُّنوب. فمعارف هذا الكتاب المقدّس وحقائقه لا يمسّه إلا المطهّرون من دنس الخطايا والآثام.

٥- حبّ الدُّنيا أيضاً والتعلّق بها يصرف القلب عن الله فتكون وجهته إلى غيره فيغفل القلب بواسطة هذه المحبّة عن ذكر الله ويعرض عنه، فيحجب عن معارف القرآن الحقّة.

للمطالعة

في رحاب الإمام قدس سره

يترجم الإمام الخمينيّ قدس سره احترامه للناس ورعاية مشاعرهم بأفعاله وتصرّفاته الحكيمة دائماً. فعندما كان الإمام في باريس، نزل في إحدى مناطقها في منزل أحد الجامعيّين أوّلاً، وكان البيت في الطبقة الرابعة. ولكثرة الذهاب والإياب إليه، وعدم راحة الجيران بسبب ذلك، قرّر الإمام أخذ مكان لا يزعج فيه أحداً، فكان بيت نوفل لوشاتو.

وفي باريس، وفي ليلة ميلاد السيّد المسيح عليه السلام، وزّع على جيرانه المسيحيّين هدايا مؤلّفة من بعض الحلويّات الإيرانيّة والمكسّرات إضافة إلى باقة ورد لكلّ بيت.

وفي نوفل لوشاتو يُمنع ذبح الحيوانات خارج المسلخ حسب القانون، وفي أحد الأيّام ذبحوا في مكان سكن الإمام خروفاً.. ومع أنّ الإمام كان في ديار الكفر، قال: لأنّ ذلك مخالف لقانون الحكومة، فلن آكل من هذا اللحم.

فإنّ الإمام وإن كان في منطقة غير مسلمة، ولكنّه كان يُظهر فيها أخلاق الإسلام، واحترام الرسالة المحمّدية للإنسان، كيف لا يكون كذلك وهو المتعلّم من نبع الطهارة؟

كانوا مسيحيّين، ولكنّه رفض إزعاجهم في سكنه، بسبب تردّد الزائرين إليه. لم يكونوا مسلمين. ولكنّه شاركهم وهنّأهم في عيدهم بميلاد رسول ما قبل الإسلام. فبعث إليهم بهدايا كعلامة مشاركة في هذا العيد.

ونفهم ممّا مضى كلّه من خدمة الإمام للناس، وحرصه على أن لا يخدمه أحد، كما يذكر الأخ سليماني: أنّ الإمام كان شديد الحرص، ويقول لنا دائماً عندما نقوم بأيّ شيء من أجله: "**لا تزعجوا أنفسكم**". ومع ذلك نراه يخدم الناس، ويرى ذلك لا يقلّ ثواباً عن الزيارة.

الدرس الثامن: الرسم القرآنيّ

أهداف الدرس

١- أن يتعرّف الطالب إلى أقسام الرسم القرآنيّ.

٢- أن يميّز بين بعض كلمات الرسم العثمانيّ والرسم القياسيّ.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[1].

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بلسان العرب, وذلك لأنّ كلّ نبيّ أُنزل كتابه بلسان قومه، والقرآن الكريم ليس أمراً ونهياً وكلمات ومعاني فقط، بل هو رسم أيضاً.

ومن المعلوم أنّ للقرآن الكريم منهجاً خاصّاً في الكتابة، يختلف نوعاً ما عن الكتابة الّتي أَلِفَها الناس.

أقسام الرسم القرآنيّ

قسّم العلماء الرسم الكتابيّ ـ الخطّ الإملائيّ ـ إلى قسمين رئيسين.

الأوّل: أطلقوا عليه اسم الرسم القياسيّ، ويقصدون به كتابة الكلمة كما تُلفظ، مع الأخذ بعين الاعتبار حالتي الابتداء بها والوقف عليها.

الثاني: أطلقوا عليه اسم الرسم التوقيفيّ، ويقصدون به الرسم العثمانيّ، إذ هو الرسم الّذي كُتبت به المصاحف.

وقد صنّف العلماء في هذا المجال ما عُرف بـ "**علم الرسم القرآنيّ**" ووضعوا

[1] سورة الزخرف، الآيات: ١ ـ ٣.

كتباً خاصّة في هذا الموضوع، منها، على سبيل المثال لا الحصر، كتاب "المقنع في معرفة رسم مصاحف الأمصار" لأبي عمرو الداني، وكتاب التنزيل لأبي داود سليمان نجاح.

متباينات الرسم العثمانيّ والرسم القياسيّ

إنّ الرسم العثمانيّ يخالف الرسم القياسيّ من بعض الوجوه، أهمّها خمسة وجوه، نذكرها فيما يأتي مع التمثيل لها:

الوجه الأول، الحذف

وهو كثير، ويقع في حذف الألف، والواو، والياء.

فمن أمثلة حذف الألف، قوله تعالى ﴿**الْعَالَمِينَ**﴾[1]: حيث حُذفت الألف بعد العين، وقد كُتبت كذلك في جميع مواضعها في القرآن، والأصل في كتابتها حسب الرسم الإملائيّ (العالمين).

ومن أمثلة حذف الواو، قوله تعالى: ﴿**وَالْغَاوُونَ**﴾[2]، وقد وردت في موضعين من القرآن، والأصل فيها (الغاوون).

ومن أمثلة حذف الياء، قوله تعالى: ﴿**النَّبِيِّينَ**﴾[3]، وقد وردت كذلك في جميع مواضعها في القرآن، وعدد مواضعها ثلاثة عشر موضعاً، والأصل في كتابتها (النبيّين).

ومن وجوه حذف الأحرف أيضاً، حذف اللام والميم.

فمثال حذف اللام، قوله تعالى: ﴿**اللَّيْلِ**﴾[4]، وقد كتبت كذلك في جميع مواضعها، وعددها ثلاثة وسبعون موضعاً، والأصل فيها (الليل).

[1] سورة الفاتحة، الآية: ٢.

[2] سورة الشعراء، الآية: ٩٤.

[3] سورة البقرة، الآية: ٦١.

[4] سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

ومثال حذف النون ﴿**نُنجِي**﴾[1] والأصل فيها (ننجي).

١ – كلمة "اسم":

قال الله تعالى ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾[2]، ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾[3].

٢ – كلمة (سموات – سماوات).

وردت كلمة ﴿**السَّمَاوَاتِ**﴾ بهذا الرسم بدون ألف صريحة ١٨٩ مرّة في القرآن الكريم... ووردت مرّة واحدة فقط بألفٍ صريحة بعد حرف (و) بالرسم القرآنيّ ﴿**سَمَاوَاتٍ**﴾ وذلك في الآية الكريمة رقم ١٢ من سورة فصّلت ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾[4].

٣ – كلمة (الميعاد . الميعد).

وردت كلمة (الميعاد) وذلك بألف صريحة في وسط الكلمة ٤ مرّات في القرآن الكريم... وكلّها تتكلّم عن الميعاد الأخروي الّذي وعده الله سبحانه وتعالى.. لذلك جاء الميعاد واضحاً وصريحاً ولا ريب فيه مثال ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾[5]، ولما تحدّث القرآن عن لقاء المسلمين بالكفّار في المعركة جاءت الكلمة بلا ألف صريحة: ﴿**وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ**﴾[6].

٤ – كلمة (سعوا . سعو).

وردت سعوا بشكلها العادي مرّة واحدة: ﴿**وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ**

---

[1] سورة الأنبياء، الآية: ٨٨.

[2] سورة الواقعة، الآيتان: ٩٥ . ٩٦.

[3] سورة العلق، الآية: ١.

[4] سورة فصّلت، الآية: ١٢.

[5] سورة آل عمران، الآية: ٩.

[6] سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1]، ووردت (سعو) ﴿**وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا**﴾[2] بشكلها غير العادي بدون ألف في آخرها مرّة واحدة أيضاً في القرآن الكريم.

٥- كلمة (صحب . صاحب).

في الآية ٣٤ من سورة الكهف يقول القرآن الكريم على لسان مالك الجنّتين: ﴿**وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**﴾[3]، بألف متروكة.

غير أنّ الردّ يأتيه من صاحبه المؤمن في الآية ٣٧ من نفس سورة الكهف: ﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**﴾[4] باستخدام الألف الصريحة، والمدّ بالألف المتروكة.

٦- حذف حرف الواو من بعض الأفعال.

ورد أنّه تمّ كتابة هذه الأفعال الأربعة بحذف الواو وهي:

﴿**وَيَدْعُ الإِنسَانُ – وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ – يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ – سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ**﴾ ولكن من غير نقط ولا شكل في الجميع.

٧- كلمة (وسئل . فسئل).

ورد في القرآن الكريم كلّه فعل الأمر من (سأل) ناقصاً حرف (أ) في البداية. ونذكر فيما يلي نماذج من الآيات الكريمة الّتي ورد فيها هذا الفعل:

قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا**﴾[5].

---

[1] سورة الحجّ، الآية: ٥١.

[2] سورة سبأ، الآية: ٥.

[3] سورة الكهف، الآية: ٣٤.

[4] سورة الكهف، الآية: ٣٧.

[5] سورة يوسف، الآية: ٨٢.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾[1].

٨– كلمة (أيد ـ أييد).

وردت كلمة (أيد) وهي جمع يد مرّتين في القرآن الكريم بهذا الرسم العاديّ، وذلك في الآيتين التاليتين:

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾[2].

غير أنّها وردت مرّة واحدة برسم مختلف يزيد حرف (ي) في منتصفها، وذلك في الآية الكريمة الآتية: ﴿**وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾[3].

الوجه الثاني: الزيادة

وتكون في الألف، والواو، والياء، فمثال الزيادة في الألف قوله تعالى: (وجِاىء)، والأصل فيها (وجيء).

ومثال الزيادة في الواو قوله تعالى ﴿**سَأُرِيكُمْ**﴾[4]، والأصل فيها (سأريكم).

ومثال الزيادة في الياء قوله تعالى ﴿**بِأَيْدٍ**﴾[5]، وهو الموضع الوحيد في القرآن، والأصل فيها (بأيدٍ).

الوجه الثالث، الهمز

حيث وردت الهمزة في الرسم العثمانيّ تارةً برسم الألف، وتارة برسم الواو، وتارة برسم الياء.

[1] سورة النحل، الآية: ٤٣.

[2] سورة ص، الآية: ١٧.

[3] سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

[4] سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.

[5] سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

فمن أمثلة ورودها ألفاً، قوله تعالى ﴿**لَتَنُوءُ**﴾[1]، وهو الموضع الوحيد، والأصل فيها (لتنوء).

ومن أمثلة ورودها واواً قوله تعالى: ﴿**يَبْدَأُ**﴾[2]، وهي كذلك في مواضعها الستّة من القرآن، والأصل فيها (يبدأ).

ومن أمثلة مجيئها ياءً، قوله تعالى ﴿**وَإِيتَاءِ**﴾[3]، وهو الموضع الوحيد من ثلاثة مواضع، والأصل فيها (وإيتاء).

الوجه الرابع، البدل

ويقع برسم الألف واواً أو ياء، فمن مجيئها واواً قوله تعالى: ﴿**الصَّلاةَ**﴾[4]، وهي كذلك في جميع مواضعها الأربعة والستّين، والأصل (الصلاة) ومثلها (الزكاة).

ومن صور رسمها ياءً، قوله تعالى: ﴿**يَا أَسَفَى**﴾[5]، والأصل فيها (يا أسفا).

ومن ذلك أيضاً، قوله تعالى ﴿**وَالضُّحَى**﴾[6]، ولم ترد إلّا في هذا الموضع، والأصل فيها (والضحا).

الوجه الخامس، الفصل والوصل

فقد رسمت بعض الكلمات في المصحف العثمانيّ متّصلة مع أنّ حقّها الفصل، ورسمت كلمات أخرى منفصلة مع أنّ حقّها الوصل، فمن أمثلة ما اتّصل وحقّه الفصل ما يلي:

- (عن) مع (ما) حيث رسمتا في مواضع من القرآن الكريم متّصلتين، من ذلك

---

[1] سورة القصص، الآية: ٧٦.

[2] سورة يونس، الآية: ٤.

[3] سورة النحل، الآية: ٩٠.

[4] سورة البقرة، الآية: ٣.

[5] سورة يوسف، الآية: ٨٤.

[6] سورة الضحى، الآية: ١.

قوله تعالى: ﴿**عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[1]، وقد وردت كذلك في جميع المواضع.

- (بئس) مع (ما) رسمتا متّصلتين في مواضع، من ذلك قوله تعالى: ﴿**بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ**﴾[2]، وهي كذلك في مواضعها الثلاثة.

- (كي) مع (لا) رسمتا متّصلتين في مواضع، من ذلك قوله تعالى ﴿**لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ**﴾[3]، وهي كذلك في مواضعها الأربعة.

ومن أمثلة ما انفصل وحقّه الوصل ما يلي:
- قوله تعالى: ﴿**كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا**﴾[4]، وقد جاءت كذلك في ثلاثة مواضع، وجاءت متّصلة على الأصل في خمسة عشر موضعاً.

- قوله تعالى: ﴿**أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا**﴾[5]، وقد جاءت كذلك في ثمانية مواضع، وجاءت متّصلة على الأصل في أربعة مواضع.

هذه الوجوه الخمسة الّتي أتينا على ذكرها، مع شيء من التمثيل لها، هي أهمّ الوجوه الّتي فارق فيها الرسم العثمانيّ الرسم الإملائيّ.

[1] سورة البقرة، الآية: ٧٤.
[2] سورة البقرة، الآية: ٩٠.
[3] سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.
[4] سورة النساء، الآية: ٩١.
[5] سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

للمطالعة

من اكتشافات القرآن العلميّة

دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس

يقول التاريخ إنَّ غاليليو الإيطاليّ كان أوّل من اكتشف دوران الأرض حول نفسها قبل نحو أربعة قرون، بينما كان العلماء قبله يؤمنون بنظرية بطليموس المصريّ القائلة إنّ الأرض هي مركز الكون وإنَّ جميع الأجرام الأخرى تدور حولها.

وكان جزاء غاليليو على اكتشافه العلميّ هذا أنْ حكمت الكنيسة بكفره، ولم ينجُ من الموت إلاّ باظهار الندم على اكتشافه ذاك. غير أنّ علماء آخرين تابعوا نظريته واكّدوها بحيث إنّها أصبحت اليوم من الأُمور الّتي لا يختلف فيها اثنان، بل لقد ثبت بالتجارب الملموسة أنَّ الأرض تدور حول نفسها، وخاصّة بعد التحليقات الفضائية الأخيرة.

وعليه فقد فقدت الأرض مركزيّتها بالنسبة للكون بعد أنْ تبيّن أنَّنا كنّا من قبل ضحيّة خطأ حواسّنا، فكنّا نخلط حركة الأرض بحركة مجموعة الثوابت والسيّارات. إنَّنا نحن الّذين نتحرّك، وكنّا نعتبرها هي الّتي تتحرّك.

على كلّ حال، لقد سيطرت نظريّة بطليموس نحو ألف و خمسمائة سنة على عقول العلماء.

وعند ظهور القرآن لم يكن أحد يجرؤ على القول بخلاف ذلك.

ولكنّنا إذا رجعنا إلى آيات القرآن نجد أنَّه في الآية ٨٨ من سورة "**النمل**" يتحدّث الله تعالىعن حركة الأرض فيقول عز من قائل: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾.

هذه الآية تشير بوضوح إلى حركة الجبال مع أنَّنا نراها ساكنة جامدة. إنَّ تشبيه حركتها بحركة السحاب يفيد السرعة مع الهدوء.

أمّا التعبير عن حركة الأرض بحركة الجبال، فهو لكي يبيّن أهمّيّة الموضوع، إذ لا حركة للجبال بغير حركة الأرض من تحتها، أي إنَّ حركتها هي حركة الأرض نفسها، سواء أكان المقصود دورانها حول نفسها، أم حول الشمس، أم كليهما.

تصوّر الآن عصراً كانت فيه جميع المحافل العلميّة في العالم والإنسان العاديّ، يؤمنون بنظريّة سكون الأرض ودوران الشمس والكواكب الأخرى حولها. ألا يكون الإخبار بحركة الأرض بهذا البيان معجزةً علميّة، خاصّة أنَّ المخبر إنسان أُمّيّ لم يدخل مدرسة، بل إنَّه نشأ في محيط متخلّف لا مدرسة فيه ولا تعليم؟ أفلا يكون هذا دليلاً على كون القرآن كتاباً سماويّاً؟[1]

[1] سلسلة دروس في العقائد الاسلاميّة، آية الله مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة، ط٢، ص١١٤. ١١٦.

الدرس التاسع: تفسير القرآن الكريم

أهداف الدرس

١- أن يتعرّف الطالب إلى معنى التفسير.

٢- أن يعدِّد شروط التفسير.

٣- أن يميّز بين المنهج التجزيئي والمنهج الموضوعي.

معنى التفسير

التفسير لغة: البيان والكشف (لسان العرب، مادّة (فسر)). فتفسير الكلام هو الكشف عن مدلوله وبيان معناه، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم بهذا المعنى أيضاً، في قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾[1].

وتفسير القرآن هو بيان معاني الآيات القرآنيّة والكشف عن مقاصدها ومدالیلها، بالعقل والقرآن والروايات الشريفة.

شروط التفسير

نقصد بشروط التفسير الأسس والمباني الفكريّة والعقائديّة الّتي لا بدّ أن يقوم عليها التفسير من أجل أن يكون تفسيراً صحيحاً للقرآن الكريم.

وهنا عدّة مسائل:

الأولى: الذهنيّة الإسلاميّة:

لا بدّ للمفسّر الّذي يريد أن يفسّر القرآن الكريم أن يفسّره بـ (ذهنيّة إسلاميّة). ومعنى ذلك أن يكون لدى هذا المفسّر مجموعة من التصوّرات الأساسيّة يعتمد عليها الإسلام، وترتبط بالقرآن الكريم وتشكّل الإطار العامّ للتفسير, الّذي من خلاله

[1] سورة الفرقان، الآية: ٣٣.

يتمكّن المفسّر من الوصول إلى نتائج صحيحة في عمله التفسيريّ. فيكون تصوّره للقرآن أنّه وحي إلهيّ، وأنّ نسبته هي إلى الله سبحانه وتعالى، وأنّ القرآن ليس نتاجاً وجهداً بشريّاً، ومن خلال هذا وحده يتمكّن من الوصول إلى نتائج صحيحة في تفسيره للقرآن الكريم.

الثانية: التصوّر العامّ عن القرآن:

بأن يكون لدى المفسّر تصوّر عامّ عن كيفيّة نزول القرآن والأسلوب الّذي اتّبعه في (عمليّة التغيير) ومنهجه في طرح القضايا والأحداث من قبيل أن يعرف المفسّر (إجمالاً) أنّ في القرآن الكريم ناسخاً ومنسوخاً، فإنّ هذه الفكرة ذات أثر كبير في فهم القرآن وإمكانيّة تفسير بعضه ببعض.

وأن ينظر إلى القرآن الكريم على أنّه يمثّل وبمجموعه نصّاً واحداً، وأن بعضه يشكّل قرينة على بعضه الآخر، ففيه "**المطلق والمقيّد**" وفيه "**المجمل والمبيّن**" وفيه "**المحكم والمتشابه**"[1]، وأنّ القرآن الكريم وإن نزل بشكل تدريجيّ وخلال ثلاث وعشرين سنة، إلّا أنّ هناك قرائن عديدة تدلّ على أنّ هذا الشيء الّذي نزل بشكل تدريجيّ يشكّل وبمجموعه قضيّة واحدة وكلاماً واحداً، وأنّ بعضه يكمل الآخر ويوضحه. فقد أكّد أئمّة أهل البيت عليهم السلام كثيراً على أهميّة هذا الموضوع في تفسير القرآن الكريم ووجّهوا انتقاداً شديداً لمجموعة من المفسّرين الّذين كانوا يتعاملون مع القرآن الكريم من دون الالتفات إلى هذه الرؤية العامّة للقرآن.

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث احتجاجه على الصوفية لما احتجّوا عليه بآيات من القرآن في الإيثار والزهد قال: "**ألكم علم بناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه الّذي في مثله ضلّ من ضلّ، وهلك ومن هلك من هذه الأمّة؟ قالوا: أو بعضه فأمّا كلّه فلا. فقال لهم: فمن ههنا أُتيتم**"[2]. وكذلك أحاديث

[1] وتوضيح هذه المصطلحات وغيرها يأتي إن شاء الله في مباحث علوم القرآن.

[2] (أُتيتم) بالبناء للمفعول أي دخل عليكم البلاء وأصابكم ما أصابكم

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – إلى أن قال: – فبئس ما ذهبتم إليه وحملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم وأحاديثه الّتي يصدّقها الكتاب المنزل وردّكم إيّاها لجهالتكم وتركككم النظر في غريب القرآن من التفسير والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي – إلى أن قال عليه السلام: – دعوا عنكم ما اشتبه عليكم ممّا لا علم لكم به، وردّوا العلم إلى أهله تُؤجروا وتُعذروا عند الله، وكونوا في طلب ناسخ القرآن من منسوخه، ومحكمه من متشابهه، وما أحلّ الله فيه ممّا حرّم، فإنّه أقرب لكم من الله، وأبعد لكم من الجهل، دعوا الجهالة لأهلها، فإنّ أهل الجهل كثير، وأهل العلم قليل، وقد قال الله: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾[1]".

الثالثة: العقيدة الصحيحة:

بأن تكون المباني العقائديّة للمفسّر مبانٍ صحيحة. والمقصود من العقيدة الصحيحة هي تلك العقيدة الّتي تنتهي في سلسلة مراتبها وارتباطاتها واستنباطها إلى القرآن الكريم نفسه. فتصبح هذه العقيدة – والّتي هي قرينة على فهم المضامين القرآنيّة – نابعة من القرآن الكريم ذاته، ومن ثَمّ لا نخرج بالتفسير عن حدود نفس القرآن الكريم.

الرابعة: المعرفة باللغة العربيّة الفصحى وقواعدها:

يقول تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[2]. وهذا أمر مفروغ منه إذ لا يمكن لمن يريد أن يخوض غمار تفسير آي القرآن أن يكون جاهلاً باللّغة العربية وفصاحتها وبلاغتها وقواعدها الإعرابيّة.

تطوّر علم التفسير

بدأ التفسير للآيات وبيان معاني ألفاظ القرآن الكريم منذ عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فكان هو أوّل من أوضح مقاصده. وبعد أن ارتحل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، رجعت الشيعة إلى أهل

[1] سورة يوسف، الآية: ٧٦، الكافي، ج٥، ص٧٠.

[2] سورة يوسف، الآية: ٢.

بيته لما مرّ من حجيّة أقوالهم ولم يركنوا إلى آراء الصحابة والتابعين الّذين اعتمد أقوالهم بقيّة المسلمين، إلّا ما ثبت أنّه حديث نبويّ.

فكانت أوائل التفاسير عبارة عن أحاديث مأثورة عن النبيّ وأهل بيته ثمّ تطوّرت إلى أن أصبحت التفاسير تحوي علوماً عديدة.

وما بأيدينا من تفاسير شاهد حيّ على اتّساع أنماط التفسير وتشعّب علومه.

مناهج التفسير

ظهرت مناهج متعدّدة في تفسير القرآن الكريم عند المسلمين عامّة, نتيجة التحوّلات الفكريّة الّتي شهدتها الأجيال اللاحقة ابتداءاً من القرن الثاني الهجريّ، وذلك مع شيوع المباحث الكلامية وانتشار الفلسفة وعلم التصوّف..

١- منهج التفسير التجزيئيّ:

"وهو المنهج الّذي يتناول المفسّر ضمن إطاره القرآن الكريم آية فآية وفقاً لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف، ويفسّره بما يؤمن به من أدوات ووسائل للتفسير من الظهور أو المأثور من الأحاديث أو بلحاظ الآيات الأخرى الّتي تشترك مع تلك الآية في مصطلح أو مفهوم، وبالقدر الّذي يلقي ضوءاً على مدلول القطعة القرآنيّة الّتي يراد تفسيرها والكشف عن مدلولها اللفظيّ، مع أخذ السياق الّذي وقعت تلك القطعة ضمنه بعين الاعتبار في كلّ تلك الحالات. فالهدف في كلّ خطوة من هذا التفسير هو فهم مدلول هذا المقطع أو هذه الآية الّتي يواجهها المفسّر بكلّ الوسائل الممكنة، أي أنّ الهدف (هدف تجزيئيّ) لأنّه يقف دائماً عند حدود فهم هذا الجزء أو ذاك من النصّ القرآنيّ ولا يتجاوز ذلك غالباً"[١].

٢- منهج التفسير الموضوعيّ:

"وهو المنهج الّذي (...) يحاول (المفسّر) القيام بالدراسة القرآنيّة لموضوع

[١] المدرسة القرآنيّة للسيّد الشهيد محمّد باقرالصدر قدس سره، المحاضرة الأولى: ٩ - ١١، طبعة بيروت.

من موضوعات القرآن العقائديّة أو الاجتماعيّة، كعقيدة التوحيد، أو النبوّة، أو سنن التأريخ في القرآن... ويستهدف التفسير الموضوعيّ من القيام بهذه الدراسات تحديد موقف نظريّ للقرآن الكريم، ومن ثمّ للرسالة الإسلاميّة من ذلك الموضوع"[1].

معاني الموضوعيّة[2]:

ومن أجل أن يتّضح موضوع البحث ومركز الاختلاف لا بدّ أن نفهم مصطلح (الموضوعيّة) فإنّ هناك ثلاثة معان لمصطلح (الموضوعيّة) ذكرها الشهيد الصدر قدس سره، وهي:

أوّلاً: (الموضوعيّة) في مقابل (الذاتيّة) و (التحيّز). والموضوعيّة بهذا المعنى عبارة عن الأمانة والاستقامة في البحث والتمسّك بالأساليب العلميّة المعتمدة على الحقائق الواقعيّة في نفس الأمر والواقع، دون أن يتأثّر الباحث بأحاسيسه ومتبنّياته الذاتيّة ولا أن يكون متحيّزاً في الأحكام والنتائج الّتي يتوصّل إليها. وهذه (الموضوعيّة) أمر صحيح ومفترض في كلا المنهجين: (التجزيئيّ) و (الموضوعيّ) ولا اختصاص لأحدهما بها.

ثانياً: (الموضوعيّة) بمعنى أن يبدأ في البحث من (الموضوع)، الّذي هو (الواقع الخارجيّ) ويعود إلى (القرآن الكريم) لمعرفة الموقف تجاه الموضوع الخارجيّ. "**فيركّز المفسّر – في منهج التفسير الموضوعيّ – نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائديّة أو الاجتماعيّة أو الكونيّة ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنسانيّ حول ذلك الموضوع من مشاكل، وما قدّمه الفكر الإنسانيّ من حلول وما طرحه التطبيق التأريخيّ من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثمّ يأخذ النصّ القرآنيّ... ويبدأ معه حواراً، فالمفسّر يسأل والقرآن يجيب، وهو يستهدف من ذلك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح**". "وقد يسمّى هذا المنهج أيضاً

[1] تفسير سورة الحمد، السيد محمد باقر الحكيم، ص ٩٢.

[2] م. ن. ص ٩٢ – ٩٤.

بالمنهج (التوحيديّ) باعتبار أنّه يوحّد بين (التجربة البشريّة) و(القرآن الكريم) لا بمعنى أنّه يحمل التجربة البشريّة على القرآن، بل بمعنى أنّه يوحّد بينهما في سياق واحد، لكي يستخرج نتيجة هذا السياق المفهوم القرآنيّ الّذي يمكن أن يحدّد موقف الإسلام تجاه هذه التجربة أو المقولة الفكريّة".

ثالثاً: وقد يراد من (الموضوعيّة) ما يُنسب إلى الموضوع، حيث يختار المفسّر موضوعاً معيّناً ثمّ يجمع الآيات الّتي تشترك في ذلك الموضوع فيفسّرها. **"ويمكن أن يسمّى مثل هذا المنهج منهجاً توحيدياً أيضاً باعتبار أنّه يوحّد بين هذه الآيات ضمن مركب نظريّ واحد"**.

ولا شكّ أنّ المعنى الأوّل ليس موضوع البحث إذ لا يختلف التفسير الموضوعيّ عن التفسير التجزيئيّ في ضرورة توفّر هذا الوصف فيه، ويبقى عندنا المعنى الثاني والثالث.

خلاصة

التفسير لغة: البيان والكشف، وتفسير القرآن هو بيان معاني الآيات القرآنيّة والكشف عن مداليلها، بالعقل والقرآن والروايات الشريفة.

كلمة التأويل لا ترادف كلمة التفسير ولا تعني مجرّد الكشف والإبانة عن المعنى، بل تعني شيئاً آخر وهو ما يؤول إليه الشيء.

من شروط التفسير: الذهنيّة الإسلاميّة، التصوّر العامّ عن القرآن، العقيدة الصحيحة، المعرفة باللغة العربيّة.

كانت أوائل التفاسير عبارة عن أحاديث مأثورة عن النبيّ وأهل بيته ثمّ تطوّرت إلى أن أصبحت التفاسير تحوي علوماً عديدة.

أمّا مناهج التفسير، فمنها:

منهج التفسير التجزيئيّ: وهو المنهج الّذي يتناول المفسّر ضمن إطاره القرآن الكريم آية فآية وفقاً لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف.

منهج التفسير الموضوعيّ: وهو المنهج الّذي يحاول القيام بالدراسة القرآنيّة لموضوع من موضوعات القرآن العقائديّة أو الاجتماعيّة.

للمطالعة

بعض من كتب التفسير

١- تفسير القميّ، تأليف: عليّ بن إبراهيم بن هاشم القمّيّ (متوفّى ٣٠٧هـ)، وهو تفسير روائيّ.

٢- التبيان في تفسير القرآن، تأليف: أبي جعفر محمّد بن الحسن بن عليّ، المعروف بالشيخ الطوسيّ (متوفّى سنة ٤٦٠هـ).

٣- مجمع البيان في تفسير القرآن، تأليف: أبي عليّ الفضل بن الحسن الطبرسي من أعلام القرن السادس الهجري.

٤- تفسير القرآن الكريم، تأليف: صدر المتألّهين محمّد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازيّ (متوفّى ١٠٥٠هـ).

٥- نور الثقلين، الشيخ عبد عليّ بن جمعة العروسيّ الحويزيّ (متوفّى ١١١٢هـ)، وهو تفسير روائيّ.

٦- الميزان في تفسير القرآن، تأليف: السيد محمّد حسين الطباطبائيّ (متوفّى ١٤٠٢هـ)، ينهج منهجية تفسير القرآن بالقرآن.

٧- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: تأليف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي تفسير يلاحظ منهجيّات التفسير عامّة ويركّز على العبر ليستفيد من الآيات الكريمة دروساً متعدّدة فكريّة واجتماعيّة.

٨- مفاهيم قرآنيّة: تأليف الشيخ جعفر سبحاني (معاصر) يتبع أسلوب التفسير الموضوعيّ فيعالج تفسير الآيات المرتبطة بموضوع معيّن أينما كان محلّها في القرآن الكريم.

٩- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، تأليف: السيد عبد الأعلى الموسويّ السبزواريّ، اتّبع منهجيَّيَ التفسير الروائيّ وتفسير القرآن بالقرآن.

١٠- تفسير القرآن الكريم، السيّد مصطفى الخمينيّ رضوان الله عليه.

الدرس العاشر: أصول التفسير

أهداف الدرس:

١- أن يتعرف الطالب إلى أصول التفسير ومداركه.

٢- أن يعدّد طرائق التفسير.

٣- أن يبيّن أنّ القرآن مائدة لجميع النّاس.

لا بدّ للمفسّر في استكشاف مراد الله تعالى من اتّباع ظواهر الكتاب أو ما حكم به العقل الفطريّ الصحيح، أو ما ثبت عن المعصوم من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام عليه السلام. وهذه الأمور الثلاثة هي أصول التفسير ومداركه.

ظواهر الكتاب

والمراد من ظاهر القرآن ما يفهمه العرف العام العارف باللّغة العربيّة الفصيحة من اللّفظ، ولم يقم على خلافه قرينة عقليّة أو نقليّة معتبرة، فالقرآن نزل بلسان يسير واضح ومفهوم، وخاطب الناس بالطريقة المألوفة، ولذا عبّر أقواله وبيانه: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾[1].

وأمّا الإمام فلأنّه أحد الثقلين اللّذين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتمسّك بهما، والأئمّة كما قال الصادق عليه السلام: "**ولاة أمر الله، وخزنة علم الله، وعيبة وحي الله**"[2].

كما أنّ في القرآن قواعد كُليّة ومفاهيم عامّة لا نفهم جزئيّاتها وتفاصيلها وحدودها إلّا من خلال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والعترة عليهم السلام وهذا ما يعبّر عنه بالتبيين.

قال تعالى: ﴿**بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[3].

[1] سورة الحشر، الآية: ٧.

[2] الكافي، الكليني، ج١، ص١٩٢.

[3] سورة النحل، الآية: ٤٤.

وذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿**أَقِيمُواْ الصَّلاةَ**﴾.

فيأتي بيان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: "**صلّوا كما رأيتموني أصلّي**".

العقل القطعيّ

فالآيات القرآنيّة الّتي ينافي ظهورها الابتدائيّ أحكام العقل القطعيّة لا بدّ من حملها على معنى يتلاءم مع تلك الأحكام، فالعقل يقطع بوجود الإله بعد التفكّر والتدبّر وعدم جواز الجسميّة له، فقوله تعالى: ﴿**وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾[1]، وإن كان ظاهراً ابتداءً في كون الجائي هو الربّ نفسه، المستلزم للجسميّة الممتنعة في حقّه تعالى، إلّا أنّ حكم العقل القطعيّ باستحالة ذلك (لاستلزامه حاجة الخالق لجسم ما يجعله فقيراً محتاجاً كمخلوقاته) يوجب عدم انعقاد ظهور له في هذا المعنى وهو اتّصاف الربّ بالمجيء المادّي، وعليه فلا بدّ من أن يكون المقصود بالمجيء معنى آخر كحضور صفة من صفات الله تعالى.

والمفسّر عندما يريد كشف مراد الله تعالى يتسلّح بهذه الأمور الثلاثة ويعتمد عليها فلا يجوز الاعتماد على الظنون والاستحسان، ولا على شيء لم يثبت أنّه حجّة من طريق العقل، أو من طريق الشرع، للنهي عن اتّباع الظنّ وحرمة إسناد شيء إلى الله بغير إذنه.

قال تعالى: ﴿**قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ**﴾[2]. ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾[3].

والروايات الناهية عن التفسير بالرأي مستفيضة من الطرفين[4].

طرائق التفسير

قد ظهرت طرائق متعدّدة في تفسير القرآن الكريم عند المسلمين عامّة نتيجة

[1] سورة الفجر، الآية: ٢٢.

[2] سورة يونس، الآية: ٥٩.

[3] سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

[4] البيان، ص٣٩٧.

التحوّلات الفكريّة الّتي شهدتها الأجيال اللاحقة ابتداءاً من القرن الثاني الهجريّ فصاعداً، وذلك مع شيوع المباحث الكلاميّة وانتشار الفلسفة وعلم التصوّف وما سبق ذلك واكتنفه من ميول سلفيّة ظاهريّة, كالتفسير بالمأثور والتفسير الفلسفيّ والتفسير الصوفيّ والتفسير الكلاميّ والتفسير البيانيّ والتفسير اللغويّ والتفسير التاريخيّ والتفسير العلميّ. ونحن ذاكرون لكم بعضاً من هذه الطرائق:

١- تفسير القرآن بالقرآن:

وهو يتمّ من خلال مقابلة الآية بالآية، فما أُجمل منها في مكان يتمّ تفسيره في مكان آخر.

وكما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: "**وإنّ القرآن لم ينزل ليكذّب بعضه بعضاً ولكن نزل يصدّق بعضه بعضاً**"[١].

والقرآن كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: "**يشهد بعضه على بعض وينطق بعضه ببعض**"[٢].

كما أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام كانوا يستعملون هذا الأسلوب في استدلالاتهم واحتجاجاتهم من قبيل ما ذكر في كتاب الكافي عن عليّ بن يقطين قال: سأل المهديّ (العباسيّ) أبا الحسن عليه السلام عن الخمر هل هي محرّمة في كتاب الله عزَّ وجلَّ فإنّ الناس إنّما يعرفون النهي عنها ولا يعرفون تحريمها؟ فقال له أبو الحسن عليه السلام: "**بل هي محرّمة**".

فقال: في أيّ موضع هي محرّمة في كتاب الله عزَّ وجلَّ يا أبا الحسن؟

فقال عليه السلام: قول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾[٣].

---

[١] الدر المنثور، ٢/٨.

[٢] نهج البلاغة، الخطبة ١٣١.

[٣] سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

إلى أن قال عليه السلام: فأمّا الإثم فإنّها الخمر بعينها، وقد قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**﴾[1].

فأمّا الإثم في كتاب الله فهي الخمر والميسر وإثمهما أكبر من نفعهما كما قال تعالى"[2].

٢- التفسير الروائيّ:

وهو التفسير بالأحاديث الواردة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام. والأحاديث هذه تبلغ الآلاف من طريق الشيعة وفيها مقدار كبير من الأحاديث الّتي يمكن الاعتماد عليها. إلّا أنّ هناك آيات لم يرد فيها حديث أصلاً لا من طريق السنّة ولا من طريق الشيعة.

وينبغي الالتفات إلى أنّه ربّما تشير الروايات إلى المصداق الأكمل في تفسير الآية وهذا لا يمنع من تفسير الآية بطريقة أخرى توافق ظاهرها. وقد اشتهر بينهم أنّ المورد لا يخصّص الوارد[3] وذلك لأنّ القرآن يجري مجرى الليل والنهار والشمس والقمر، إلّا أن تقوم قرينة قطعيّة على أنّ آية معينة قد انحصرت في موردها كما في آية: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ**﴾[4].

ومن التفاسير الّتي اتّبعت هذه المنهجيّة كتاب (نور الثقلين).

٣- التفسير اللغويّ:

وهو تفسير مفردات القرآن واشتقاقاتها وأصولها، كتفسير (مجمع البيان) للشيخ الطبرسيّ.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

[2] الكافي، الكليني، ج٦، ص٤٠٦.

[3] بمعنى أنه إذا كان نزول الآية في مورد ومناسبة محدّدة وخاصّة، فهذا لا يعني انحصار تفسير الآية وتطبيقها على هذا المورد الخاصّ، وأنّ الوارد وهو الآية لا تفسّر بغير هذه المناسبة بل يمكن توسعة الوارد (الآية) لتفسّر وتطبّق على مجالات أخرى.

[4] سورة المائدة، الآية: ٥٥.

وقد تباينت توجّهات المفسّرين واختلفت الجهات الّتي احتجّوا بها، كالجهة البلاغيّة والفقهيّة والكلاميّة والفلسفيّة والأخلاقيّة.

القرآن مائدة لجميع الناس

القرآن الكريم كما تقدّم واضح وميسّر للفهم. وربما احتاج إلى تعليم بعض حدود الآية الّتي لم يذكرها الله في الكتاب فأوكلها إلى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم وإلّا فإنّ القرآن في نفسه هو هدى ورحمة للعالمين، وكلّ من كان أصفى فطرةً وأكثر فكراً وتدبّراً فإنّه يحظى بفهم أكبر ويكون القرآن شفاءً ومصحّحاً للآراء والأفكار الّتي يحملها.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾[1].

فالكلّ في معرض الاستفادة من القرآن الكريم، لذلك تعدّدت الخطابات لطوائف خاصّة كبني إسرائيل، أو المؤمنين، أو الكفّار، وفي بعض الآيات يخاطب عامّة الناس وبديهيّ أنّه لا يصحّ التكلّم بما لا يكون مفهوماً وواضحاً عندهم.

وأيضاً نجد حتّى المعارف العالية يبثّها القرآن بلغة يفهمها عامّة الناس ويلقيها بشكل محسوس أو ما يقرب منه.

وتبقى الحقائق المعنويّة وراء ستار الظواهر فتتجلّى حسب الأفهام ويدرك منها كلّ شخص بقدر عقله ومداركه. واحتواء القرآن على معانٍ دقيقة ومفاهيم رقيقة وذلك في مثل صفاته تعالى الجماليّة والجلاليّة، ومعرفة وجود الإنسان وسرّ خِلقته، ومسائل من المبدأ والمعاد، كلّ ذلك جاء في القرآن في إشارات عابرة وفي ألفاظ وتعابير كنائيّة واستعارة ومجاز، فكان حلّها والكشف عن معانيها بحاجة إلى فقه ودراسة وتدبّر وإمعان نظر.

كما أنّ في القرآن إشارات إلى أحاديث غابرة وأمم خالية، إلى جنب عادات

[1] سورة يونس، الآية: ٥٧.

جاهليّة عارَضَها لم يبق منها سوى إشارات عابرة، ولولا الوقوف عليها لما أمكن فهم معاني تلكم الآيات.

هذا مضافاً إلى غرائب اللغة الّتي جاءت في القرآن على أفصحها وأبلغها، وإن كان فهمها صعباً على عامّة الناس لولا الشرح والبيان وغير ذلك من الأمور الّتي استوجبت تفسيراً، وكشفاً لما استتر ومزيداً من إمعان النظر.

إعداد النفس لحضور مائدة القرآن

تزكية النفس وتطهيرها من الأوساخ والأدران الخُلقيّة هو أهمّ شرط من شروط فهم القرآن، وأعظم هذه الأوساخ الأهواء النفسيّة، فما دام الإنسان أسيراً لأهوائه وغرائزه، فإنّه لا يستطيع أن يدرك القرآن الّذي هو نور، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "**فالّذين يقفون خلف حجب عديدة لا يمكنهم أن يدركوا النور.. ما دام الإنسان لم يخرج من حجاب نفسه المظلم جدّاً، وطالما أنّه مُبتلى بالأهواء النفسيّة، وطالما أنّه مُبتلى بالعجب، طالما أنّه مُبتلى بالأمور الّتي أوجدها في باطن نفسه، وتلك الظلمات الّتي (بعضها فوق بعض) فإنّه لا يكون مؤهّلاً لانعكاس هذا النور الإلهيّ في قلبه**"[1].

نعم، قد يتمكّن مثل هذا الإنسان من فهم بعض ظواهر الألفاظ، ولكنّه لن يصل إلى فهم مقاصده الأصليّة ومراميه الكلّيّة.

[1] القرآن في كلام الإمام الخميني قدس سره، ط٤ آذار ٢٠٠٩م –١٤٣٠هـ، ص٢٤.

خلاصة

المراد من ظاهر القرآن ما يفهمه العرف العام العارف باللّغة العربيّة الفُصحى من اللّفظ، وقول المعصوم نبيّاً كان أو إماماً حجّةٌ في مقام كشف مراد الله تعالى من آيات الكتاب العزيز.

والآيات القرآنيّة الّتي يُنافي ظهورها الابتدائيّ أحكام العقل القطعيّة لا بدّ من حملها على معنى يتلاءم مع تلك الأحكام.

من طرائق التفسير

- تفسير القرآن بالقرآن.
- التفسير الروائيّ: وهو التفسير بالأحاديث الواردة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام.
- التفسير اللغويّ: وهو تفسير مفردات القرآن واشتقاقاتها وأصولها.

ومع ذلك فالقرآن مائدة لجميع الناس، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾. ولكن لا بدّ للشخص المفسِّر من أن يطهّر نفسه من أدران الذنوب حتّى يكون مؤهّلاً لنيل المعارف القرآنيّة ونزول النور الإلهيّ على قلبه.

للمطالعة

ما كان يُوصي أمير المؤمنين عليه السلام به عند القتال عن عقيل الخزاعيّ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان إذا حضر الحرب يُوصي للمسلمين بكلمات فيقول: تعاهدوا الصلاة وحافظوا عليها واستكثروا منها وتقرّبوا بها فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً. وقد علم ذلك الكفّار حين سُئلوا ﴿**مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ**﴾[1]. وقد عرف حقّها من طرقها وأكرم بها من المؤمنين الّذين لا يشغلهم عنها زين متاع ولا قرّة عين من مال ولا ولد. يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ**﴾[2]. وكان رسول الله منصّباً لنفسه بعد البشرى له بالجنّة من ربّه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا...**﴾[3] فكان يأمر بها أهله ويصبّر عليها نفسه. ثمّ إنّ الزكاة جُعلت مع الصلاة قُرباناً لأهل الإسلام على أهل الإسلام ومن لم يُعطها طيّب النفس بها يرجو بها من الثمن ما هو أفضل منها فإنّه جاهل بالسنّة، مغبون الأجر ضالّ العمر، طويل الندم بترك أمر الله عزَّ وجلَّ والرغبة عمّا عليه صالحوا عباد الله، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى**﴾[4] من الأمانة فقد خسر من ليس من أهلها وضلّ عمله، عرضت على السماوات المبنيّة والأرض المهاد والجبال المنصوبة، فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم لو امتنعن من طول أو عرض أو عظم أو قوّة أو عزّة امتنعن ولكن أشفقن من العقوبة[5]. ثمّ إنّ الجهاد

---

[1] إشارة إلى قول الله عزَّ وجلَّ في سورة المدثر آيات ٤٢ إلى ٤٦ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾.

[2] سورة النور، الآية: ٣٧.

[3] سورة طه، الآية: ١٣٢، واصطبر أي داوم.

[4] سورة النساء، الآية: ١١٥ (نوله ما تولى) أي نقرّبه ما تولى من الضلال ونخلّي بينه وبين ما اختاره.

[5] في النهج (ولا أعظم منها ولو امتنع شيء منها بطول أو عرض أو قوة أو عزّ لأمتنعن ولكن الخ). (أشفقن من العقوبة) أي خفن، والاشفاق: الخوف.

أشرف الأعمال بعد الإسلام وهو قوام الدين والأجر فيه عظيم مع العزّة و المنعة وهو الكره فيه الحسنات والبشرى بالجنّة بعد الشهادة وبالرزق غداً عند الربّ والكرامة، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا**﴾[1] ثمّ إنّ الرعب والخوف من جهاد المستحقّ للجهاد والمتوازرين على الضلال ضلال في الدين وسلب للدنيا مع الذلّ والصَّغار، وفيه استيجاب النار بالفرار من الزحف عند حضرة القتال يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ**﴾[2] فحافظوا على أمر الله عزَّ وجلَّ في هذه المواطن الّتي الصبر عليها كرم وسعادة ونجاة في الدنيا والآخرة من فظيع الهول والمخافة فإنّ الله عزَّ وجلَّ لا يعبأُ بما العباد مقترفون ليلهم ونهارهم، لطف به علماً، وكلّ ذلك في كتاب لا يضلّ ربّي ولا ينسى، فاصبروا وصابروا واسألوا النصر ووطّنوا أنفسكم على القتال واتّقوا الله عزَّ وجلَّ فإنّ ﴿**إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾[3].

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

[2] سورة الأنفال، الآية: ١٥.

[3] الكافي، الشيخ الكليني، ج ٥، ص ٣٦ – ٣٨.

الدرس الحادي عشر: نماذج من التفسير الموضوعيّ (١) (التوحيد)

أهداف الدرس

١- أن يستظهر الطالب موضوع التوحيد في القرآن.

٢- أن يتبيّن مراتب التوحيد.

التوحيد

التوحيد أساس دعوة الأنبياء:

أصل التوحيد هو من أهمّ المسائل الاعتقاديّة الّتي تصدَّرت التعاليم السماويّة حيث يُعدُّ أساساً لسائر التعاليم والمعارف الإلهيّة الّتي جاء بها الأنبياء والرسل.

والتوحيد أصل من أصول الدين، يجب الإيمان به ومُنكره يُعتبر كافراً وخارجاً عن ملّة المسلمين.

معنى التوحيد:

هو الاعتقاد بأنّ الله تعالى واحد لا شريك له، وأحد لا شبيه له ولا مثيل.

مراتب التوحيد:

للتوحيد مراتب عديدة، ويؤدّي إنكارها أو بعضها إلى الخروج عن الإيمان والإسلام، ومن هذه المراتب:

المرتبة الأولى: التوحيد في الذات

والمراد منه هو أنّه سبحانه واحد لا نظير له، فردٌ لا مثيل له، بل لا يمكن أن يكون له نظير أو مثيل.

ويدلّ على ذلك مضافاً إلى البراهين العقليّة قوله سبحانه: ﴿**فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ**

وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[1].

وقوله تعالى: **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾**[2].

وقوله تعالى: **﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**[3].

إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أنّه تعالى واحد لا نظير له ولا مثيل ولا ثانيَ ولا عدل.

ومن ادّعى له شريكاً أو مثيلاً أو جعله ثالث ثلاثة فقد كفر، يقول تعالى: **﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**[4].

ولو كان لله تعالى شريك لاختلَّ نظام الكون وفسد ولذهب كلّ إله بما خلق كما يقول تعالى: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾**[5].

وجاء في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: **"يا بُنيّ لو كان لربّك شريك، لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه..."**[6]. فمن الطبيعيّ أنّه لو كان هناك شريك لله تعالى لظهرت آثاره ولأرسل الرسل تبشّر به وتدعو إليه. ومع عدم وجود هذه الآثار كيف نحكم بوجوده؟ فهذا يدل على عدم وجود شريك له سبحانه.

المرتبة الثانية: التوحيد في الخالقيّة

والمراد منه هو أنّه ليس في الوجود خالق أصيل غير الله، ولا فاعل مستقلّ سواه، وأنّ كل ما في الكون من مجرَّات ونجوم وكواكب وأرض وجبال وبحار، وما فيها ومن

---

[1] سورة الشورى، الآية: ١١.

[2] سورة الإخلاص، الآيات: ١ ـ ٤.

[3] سورة الزمر، الآية: ٤.

[4] سورة المائدة، الآية: ٧٣.

[5] سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

[6] موسوعة الإمام الجواد، ج٢، ص٥٧٠.

فيها، وكلّ ما يُطلق عليه أنّه فاعل وسبب فهي موجودات مخلوقة لله تعالى. وأنّ كلّ ما ينتسب إليها من الآثار ليس لذوات هذه الأسباب، وإنّما ينتهي تأثير هذه المؤثّرات إلى الله سبحانه، فجميع هذه الأسباب والمسبّبات رغم ارتباط بعضها ببعض مخلوقة لله، فإليه تنتهي العلّية والسببيّة، فهو خالق العلل ومسبّبها.

ويدلّ على ذلك مضافاً إلى الأدلّة العقلية قوله سبحانه: ﴿**قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾[2].

وقوله جلّ وعلا: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾[3].

وقوله سبحانه: ﴿**ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾[4] إلى غير ذلك آيات كثيرة تدلّ على ذلك.

المرتبة الثالثة: التوحيد في الربوبيّة

والمراد منه هو أنّ للكون مدبّراً واحداً، ومتصرّفاً واحداً لا يشاركه في التدبير شيء، وأنّ تدبير الملائكة وسائر الأسباب إنّما هو بأمره سبحانه. وهذا على خلاف رأي بعض المشركين الّذين يعتقدون أنّ الّذي يرتبط بالله تعالى إنّما هو الخلق والإيجاد والابتداء، وأمّا التدبير فقد فوّض إلى الأجرام السماويّة والملائكة والجنّ والموجودات الروحيّة الّتي تحكي عنها الأصنام المعبودة، وليس له أيّ دخالة في تدبير الكون وإدارته وتصريف شؤونه.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾[5]

---

[1] سورة الرعد، الآية: ١٦.

[2] سورة الزمر، الآية: ٦٢.

[3] سورة غافر، الآية: ٦٢.

[4] سورة الأنعام، الآية: ١٠٢.

[5] سورة يونس، الآية: ٣.

﴿اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[1].

فإذا كان هو المدبّر وحده فيكون معنى قوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً﴾[3]. إنّ هذه مدبّرات بأمره وإرادته تعالى، فلا يُنافي ذلك انحصار التدبير الاستقلاليّ في الله سبحانه.

وقد دلّ القرآن الكريم على وحدة المدبّر في العالم في آيتين: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[4].

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[5].

وهما يعنيان: أنّ تصوّر المدبّر لهذا العالم على وجوه:
١- أن يتفرّد كلّ واحد من الآلهة بتدبير مجموع الكون باستقلاله، ففي هذه الصورة يلزم تعدّد التدبير؛ وهذا يستلزم طروء الفساد على العالم وذهاب الانسجام والنظام المشهود.

وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا...﴾.

٢- أن يدبّر كل واحد قسماً من الكون الّذي خلقه، وعندئذ يجب أن يكون لكلّ جانب من الجانبين نظام مستقلّ خاص مغاير لنظام الجانب الآخر وغير مرتبط به أصلاً، وعندئذ يلزم انقطاع الارتباط وذهاب الانسجام والنظام من الكون، في حين أنّنا لا نرى في الكون إلّا نوعاً واحداً من النظام يسير على قانون مترابط دقيق يسود كلّ جوانب الكون من الذرّة إلى المجرّة.

[1] سورة الرعد: الآية: ٢.
[2] سورة النازعات، الآية: ٥.
[3] سورة الأنعام، الآية: ٦١.
[4] سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.
[5] سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

وإلى هذا الوجه أشار قوله تعالى: ﴿... **إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ**﴾.

٣- أن يتفضّل أحد هذه الآلهة على البقيّة ويكون حاكماً عليهم ويوحّد جهودهم وأعمالهم ويُسبغ عليها الانسجام والاتّحاد والنظام الواحد وعندئذ يكون الإله الحقيقيّ هو هذا الحاكم دون الباقين.

وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿**وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾، وإلّا لو لم يكن هناك إله واحد لتصارع الآلهة وخرب الكون وفسد وفني؛ لأنّ كلّ واحد يُريد أن يعلو على الآخر ويتفرّد في الحكم والتدبير.

المرتبة الرابعة: التوحيد في العبادة:

وهو أن تؤمن بأنّ المستحقّ للعبادة هو الله تعالى وحده لأنّه هو الخالق والعبوديّة من شأن الخالق الغنيّ غير المحتاج، لذلك يستحقّها وحده دون غيره، كما نقرأ في سورة الحمد ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ فهنا القرآن الكريم حصر العبوديّة بالله تعالى ويقول: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا**﴾[1].

[1] سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

خلاصة

أصل التوحيد هو من أهمّ المسائل الاعتقاديّة الّتي تصدّرت التعاليم السماويّة ويُعَدّ أساساً لسائر التعاليم والمعارف الإلهيّة الّتي جاء بها الأنبياء والرسل.

التوحيد هو الاعتقاد بأنّ الله تعالى واحد أحد لا شريك له ولا شبيه ولا مثيل.

للتوحيد مراتب عديدة يؤدّي إنكارها إلى الخروج عن الإيمان والإسلام منها:

١- التوحيد في الذات.

٢- التوحيد في الخالقيّة.

٣- التوحيد في الربوبيّة.

٤- التوحيد في العبادة.

للمطالعة

التوحيد

قال الإمام الصادق عليه السلام للمفضّل بن عمر الجعفيّ[1]: **"يا مفضّل أوّل العبر والدلالة على الباري جلّ قدسه تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه، فإنّك إذا تأمّلت العالم بفكرك وخبرته بعقلك وجدته كالبيت المبنيّ المعدّ فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم مضيئة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكلّ شيء فيها لشأنه معدّ، والإنسان كالمالك ذلك البيت والمخوّل جميع ما فيه، وضروب النبات مهيَّأة لمأربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه، ففي هذا دلالة واضحة على أنّ العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملاءمة وأنّ الخالق له واحد وهو الّذي ألّفه ونظمه بعضاً إلى بعض جلَّ قدسه وتعالى جدّه وكرم وجهه ولا إله غيره تعالى عمّا يقول الجاحدون وجلَّ وعظم عمّا ينتحله الملحدون".**

"خلق الإنسان وتدبير الجنين في الرحم".

"نبدأ يا مفضّل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به، فأوّل ذلك ما يدبّر به الجنين في الرحم وهو محجوب في ظلمات ثلاث ظلمة البطن وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ولا دفع أذى ولا استجلاب منفعة ولا دفع مضرّة فإنّه يجري من دم الحيض، ما يغذوه الماء والنبات، فلا يزال ذلك غذاؤه".

"كيفيّة ولادة الجنين وغذائه وطلوع أسنانه وبلوغه".

"حتّى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوي أديمه وبصره على ملاقاة الضياء، هاج الطلق بأمّه فأزعجه أشدّ إزعاج وأعنفه حتّى يولد، فإذا ولد صرف ذلك الدم الّذي كان يغذوه من دم أمّه إلى ثديها وانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء وهو أشدّ موافقة للمولود من الدم فيوافيه في وقت حاجته إليه فحين يولد قد تلمّظ[2] وحرّك شفتيه طلباً للرضاع"...

---

[1] توحيد المفضل، ص١٦.

[2] تلمّظ: أخرج لسانه ومسح به شفتيه.

الدرس الثاني عشر: نماذج من التفسير الموضوعيّ (٢) (النصر)

أهداف الدرس

١- أن يستظهر الطالب موضوع النصر في القرآن.

٢- أن يعدّد شروط النصر الإلهيّ.

النصر

أ- نصر الله تعالى:

في القرآن الكريم كثير من الآيات الكريمة تضيف النصر إلى الله تعالى، يقول تعالى:

﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[1].

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ﴾[2].

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[3].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

وهذه الإضافة أي إضافة النصر إلى الله تعالى تعني أنّ النصر يحتاج إلى مدد إلهيّ، فإنّ كل شيء في الوجود لا يمكن له أن يستغني عن العون والمدد والتوفيق الإلهيّ، وهي إمدادات غيبيّة ترتفع عن المسائل الحسيّة. وقبل الحديث عن أنواع الإمدادات وشروطها، نتعرّض بالإشارة إلى مصطلحين قرآنيّين:

[1] سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.

[3] سورة التوبة، الآية: ٢٥.

١- الرحمة الرحمانيّة:

هي الألطاف الإلهيّة الشاملة لكلّ الموجودات للمؤمن وغيره، فوجود كلّ شيء في هذا العالم بنفسه رحمة لذلك الموجود. وكذلك تعتبر كلّ الوسائل الّتي خُلقت لأجل وجوده والحفاظ على بقائه رحمة له أيضاً، وهذه الرحمة تُفاض وفق قوانين طبيعيّة عامّة.

٢- الرحمة الرحيميّة:

هي تلك الألطاف الإلهيّة الخاصّة، الّتي تشمل المكلَّف المؤمن خاصّة لحسن طاعته وامتثاله وأدائه، وهي تُفاض وفق شروط وقوانين خاصّة ومعيّنة.

ونحن نطلب من الله تعالى هذا النوع الخاصّ من الرحمة يوميّاً في صلاتنا: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[١].

وتشمل هذه الألطاف الإنسان في حياته الفرديّة أو الاجتماعيّة وتُنقذه من كثير من المآزق.

وقد شمل الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بمثل هذه الألطاف حيث يقول القرآن بحقّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى**﴾[٢].

فالإنسان المؤمن بحاجة إلى مثل تلك الألطاف الإلهيّة الخاصّة، والنصر من الله تعالى هو لُطف منه على عباده المؤمنين، وهو مدد غيبيّ لا يتحقّق إلّا بشروط أقرّها الله تعالى.

ب- شروط النصر الإلهي

١- الإيمان: يقول تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٣].

---

[١] سورة الفاتحة، الآية: ٥.

[٢] سورة الضحى، الآيات: ٦ ـ ٨.

[٣] سورة الروم، الآية: ٤٧.

٢– العمل والجهاد: قال تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[١].

فقوله: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ**﴾ في هذه الآية، يُفهم منه صريحاً أنّ إعطاء ومنح النصر مشروط بمن يعمل وينصر ويجاهد في سبيل الله، والآيات الكريمة في الحثّ على الجهاد كثيرة، فليس الأمر كما قال اليهود للنبيّ موسى عليه السلام حين أمرهم بالقتال لدخول الأرض المقدّسة: ﴿... **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾[٢].

٣– الأمل والصدق: يقول تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ**﴾[٣].

فنلاحظ أنّ الله تعالى أراد للمؤمنين رغم ما بهم من ضيق وضرّ وبأساء أن يأملوا نصر الله فهو قريب.

ويقول أمير المؤمنين والمجاهدين الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة: "... **ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تصاول الفحلَين، يتخالسان أنفسهما أيّهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرّة لنا من عدوّنا ومرّة لعدوّنا منا، فلمّا رأى الله صدقنا أنزل لعدوّنا الكبت وأنزل علينا النصر حتّى استقرَّ الإسلام...**"[٤].

٤– في سبيل الله: أن يكون العمل والجهاد كلّه في سبيل الله، فالنصرة لا بدّ أن تكون لله: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ**﴾.

---

[١] سورة محمد، الآية: ٧.

[٢] سورة المائدة، الآية: ٢٤.

[٣] سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

[٤] نهج البلاغة، من كلام له في وصف حربهم على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ج١، ص١٠٤، تحقيق الشيخ محمد عبده، الخطبة ٥٦.

والمجاهدة لا بدّ أن تكون في الله: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1].

٥- إعداد العدّة: قال تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾[2].

إذاً لا يتحقّق المدد الغيبيّ والنصر الإلهيّ عبثاً ولا مجّاناً ونحن عاكفون في البيوت كما قال اليهود لنبيّهم: ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾[3].

بل لا بدّ من توفّر الشروط الموضوعيّة لكي تتحقّق الألطاف الإلهيّة، وليست هذه الشروط من المستحيلات.

فدروس وعبر المسلمين الأوائل إلهامات مهمَّة لكي نأخذ منها المدد والدروس الواقعيّة.

ج- النصر ودخول الناس في الإسلام:

إنّ النصر له آثار مهمّة على النّاس المنتَصر عليهم وغيرهم، من حيث تهيئتهم للدخول في الإسلام العظيم، فالناس مع المنتصر القويّ، لا مع المنهزم الضعيف.

لذلك نرى السورة الكريمة ترتّب على النصر دخول الناس في دين الله أفواجاً.

د- استمراريّة النصر مشروطة:

النصر تعقبه انفعالات نفسيّة خطيرة على المنتصرين كالعجب، والغرور، والتكبّر، والاقتناع بما وصلوا إليه، إلى غير ذلك من الصفات. من هنا ولكي يستمرّ النصر

[1] سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

[2] سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

[3] سورة المائدة، الآية: ٢٤.

لا بدّ من إزالة هذه الرذائل الأخلاقيّة من نفوس المؤمنين، بالتسبيح والاستغفار والشكر، والتواضع أمام نعم الله سبحانه والاعتقاد بأنّ هذه النعمة العظيمة منه عزَّ وجلَّ، وملك له متى ما شاء أخذها، وبذلك تدوم العلاقة بالله تعالى.

خلاصة

في القرآن الكريم كثير من الآيات الكريمة تضيف النصر إلى الله تعالى، يقول تعالى: ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ**﴾[1].

والنصر يحتاج إلى مدد إلهيّ، أمّا أسبابه فهي: الإيمان، العمل والجهاد، الأمل والصدق، في سبيل الله، وإعداد العدّة.

إنّ النصر له آثار مهمّة على النّاس المنتصر عليهم وغيرهم، من حيث تهيئتهم للدخول في الإسلام العظيم، فالناس مع المنتصر القويّ، لا مع المنهزم الضعيف.

ولكي يستمرّ النصر لا بدّ من إزالة الرذائل الأخلاقيّة من نفوس المؤمنين كالتكبّر والاستعلاء وحبّ النفس..

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.

للمطالعة

سورة النصر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

شرح المفردات:

١- دين الله: الإسلام.

٢- أفواجاً: جماعة بعد جماعة وزمرة بعد زمرة.

٣- سبِّح: نزّه.

محتوى السورة وفضيلتها:

نزلت هذه السورة في المدينة المنوّرة بعد الهجرة، وفيها بُشرى النصر العظيم ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وهي تدعو النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن يسبّح الله ويحمده ويستغفره شكراً على هذه النعمة، وكذا سائر المؤمنين.

في الإسلام فتوحات كثيرة، ولكنّ فتحاً بالمواصفات المذكورة في السورة ما كان سوى "**فتح مكّة**"، خاصّة وأنّ العرب كما جاء في الروايات كانت تعتقد أنّ نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم لا يستطيع أن يفتح مكّة إلّا إذا كان على حقّ... ولو لم يكن على حقّ فربُّ البيت يمنعه كما منع جيش "**أبرهة**". ولذلك دخل العرب في دين الله بعد فتح مكّة أفواجاً.

وقد نزلت هذه السورة بعد "**صلح الحديبيّة**" في السنة السادسة للهجرة، وقبل عامين من فتح مكّة.

أمّا ما ذكره بعضهم من نزول هذه السورة بعد فتح مكّة في السنة العاشرة للهجرة

في حجّة الوداع فبعيد جدّاً، لأنّ عبارات السورة لا تنسجم وهذا المعنى، فهي تخبر عن حادثة ترتبط بالمستقبل لا بالماضي.

ومن أسماء هذه السورة "**التوديع**" لأنّها تشعر بقرب رحلة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى ربّه عزّ وجلّ.

في الرواية أنّ هذه السورة لما نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه ففرحوا واستبشروا وسمعها العبّاس فبكى.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ما يبكيك يا عمّ؟

فقال: أظنّ أنه قد نُعيت إليك نفسك يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "**إنّه لكما تقول**"[1].

ظاهر السورة ليس فيه إنباء عن قرب رحلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بل عن الفتح والنصر. فكيف فهم العبّاس أنّها تنعى إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه؟

يبدو أنّ دلالة السورة على اكتمال الرسالة وتثبيت الدين هو الّذي أوحى بقرب ارتحال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى جوار ربّه.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "**من قرأ ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ في نافلة أو فريضة نصره الله على جميع أعدائه، وجاء يوم القيامة ومعه كتاب ينطق قد أخرجه الله من جوف قبره، فيه أمان من حرِّ جهنّم...**"[2].

[1] مجمع البيان، ج١٠، ص ٥٥٤. هذه الرواية وردت بألفاظ مختلفة: الميزان، ج٢٠، ص٥٣٢.

[2] م. ن.

الدرس الثالث عشر: تفسير سورة الفاتحة (١)

أهداف الدرس

١- أن يتعرّف الطالب إلى خصائص سورة الفاتحة.

٢- أن يتبيّن بعضاً من مفاهيمها.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾

١ – خصائصها:

لهذه السّورة مكانة متميّزة بين سور القرآن الكريم. وتبدأ هذه السّورة – بعد البسملة – بحمد الله والثناء عليه، وتستمرّ في إقرار الإيمان بالمبدأ والمعاد **"بالله ويوم القيامة"**، وبحصر العبادة والاستعانة بالله تعالى، وتنتهي بالتضرّع والطلب للهداية، والتبرّؤ من أهل الضلالة والغواية..

سورة الحمد أساس القرآن: فقد رويَ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: "ألا أُعَلّمُكَ أَفْضَلَ سُورَة أَنْزَلَهَا اللهُ في كِتَابِهِ؟" قَالَ جَابِرُ: بَلى بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِيهَا. فَعَلَّمَهُ الْحَمْدَ أُمَّ الْكِتَابِ، وَقَالَ: **"هِي شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاء، إلاّ السَّامَ، وَالسَّامُ الْمَوْتُ"**[١].

أمّ الكتاب: وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً أَنَّهُ قَالَ: **"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْزَلَ اللهُ في**

[١] وسائل الشيعة، الحرّ العاملي، ج٦، ص٢٣٢.

التَّوْرَاةِ، وَلاَ فِي الإنجيل ولا فِي الزّبُورِ وَلا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَهَا، وَهِيَ أُمُّ الْكِتَابِ"[1].

٢– أهميّتها:

أهميّة هذه السّورة تتّضح من محتواها، فهي في الحقيقة عرض لكلّ محتويات القرآن، فجانب منها يختصّ بالتوحيد وصفات الله، وجانب آخر بالمعاد ويوم القيامة، وقسم منها يتحدّث عن الهداية والضلال باعتبارهما علامة التمييز بين المؤمن والكافر، وفيها أيضاً إشارات إلى حاكمية الله المطلقة، وإلى مقام ربوبيّته، ونعمه اللّامتناهية العامّة والخاصّة "الرحمانية والرحيمية"، وإلى مسألة العبادة والعبوديّة واختصاصهما بذات الله دون سواه.

إنّها تتضمّن في الواقع توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، وتوحيد العبادة.

وبعبارة أُخرى: تتضمّن هذه السّورة مراحل الإيمان الثلاث: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان. ومن المعلوم أنّ لفظ "**الأُمّ**" يعني هنا الأساس والجذر.

٣– محتوى السّورة:

ويُمكن تقسيم هذه السّورة، من منظار آخر، إلى قسمين: قسم يختصّ بحمد الله والثناء عليه، وقسم يتضمّن حاجات العبد.

وإلى هذا التقسيم يُشير الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَّمْتُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سأَلَ.

إِذَا قَالَ الْعَبْدُ ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ قَالَ الله جَلَّ جَلاَلُهُ: بَدَأ عَبدِي باسْمِي وَحَقٌّ عَلَيَّ أنْ أُتَمِّمَ لَهُ أُمُورَهُ وَأُبارِكَ لَهُ فِي أحوَالِهِ.

[1] مستدرك الوسائل، النوري، ج٤، ص٣٣٢.

فَإذا قَالَ: ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ قَالَ اللهُ جَلَّ جلالُهُ: حَمَدَنِي عَبدِي وَعَلِمَ أَنَّ النِعَمَ الَّتِي لَهُ مِنْ عِنْدِي، وَأَنَّ ٱلْبَلايَا الَّتِي دَفَعْتُ عَنْهُ فبِتَطَوُّلِي، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي أُضِيفُ لَهُ إلى نِعَمِ الدُّنْيَا نِعَمَ الآخِرَةِ، وَاَدْفَعُ عَنْهُ بَلاَيَا الآخِرَةِ كَمَا دَفَعْتُ عَنْهُ بَلاَيَا الدُّنْيَا.

وَإِذَا قَالَ: ﴿**الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**﴾ قَالَ الله جَلَّ جَلاَلُهُ: شَهِدَ لِي عَبْدِي أَنِّي اَلرَّحْمنُ الرَّحِيمُ، أُشْهِدُكُمْ لأُوَفِّرَنَّ مِنْ رَحْمَتِي حَظَّهُ وَلأُجْزِلَنَّ مِنْ عَطَائِي نَصِيبَهُ.

فَإِذَا قَالَ: ﴿**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ قَالَ الله تَعالى: أُشهِدُكُمْ كَمَا اعْتَرَفَ بِأَنِّي أَنَا مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ لأُسَهِّلَنَّ يَوْمَ الْحِسابِ حِسَابَهُ، وَلأَتَقَبَّلَنَّ حَسَنَاتِهِ، وَلأَتَجَاوَزَنَّ عَنْ سَيِّئَاتِهِ.

فَإِذَا قَالَ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: صَدَقَ عَبْدِي، إِيَّايَ يَعْبُدُ أُشْهِدُكُمْ لأُثِيبَنَّهُ عَلَى عِبَادَتِهِ ثَوَاباً يَغْبِطُهُ كُلُّ مَنْ خَالَفَهُ فِي عِبَادَتِهِ لِي.

فَإِذَا قَالَ: ﴿**وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ قَالَ اللهُ تَعالى: بِيَ اسْتَعَانَ عَبْدِي، وَإِلَيَّ اِلْتَجَأَ، أُشْهِدُكُمْ لأُعِينَنَّهُ عَلى أَمْرِهِ، ولأُغِيثَنَّهُ فِي شَدَائِدِهِ وَلآخُذَنَّ بِيَدِهِ يَوْمَ نَوَائِبِهِ.

فَإِذَا قَالَ: ﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾ إلى آخر السّورة قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ وَقَد اسْتَجَبْتُ لِعَبْدِي وَأَعْطَيْتُهُ مَا أَمَّلَ وَآمَنْتُهُ مِمَّا مِنْهُ وَجِلَ"[1].

٤- في رحاب سورة الفاتحة

١- بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

دأبت الأمم والشّعوب على أن تبدأ كلّ عمل هامّ ذي قيمة باسم كبير من رجالها. والحجر الأساس لكلّ مؤسّسة هامّة يوضع باسم شخصيّة مرموقة في نظر أصحابها، أي أنّ أصحاب المؤسّسة يبدأون العمل باسم تلك الشّخصيّة.

ولكن، أليس من الأفضل أن يبدأ العمل في أُطروحة أُريد لها البقاء والخلود باسم وجود خالد قائم لا يعتريه الفناء؟ فكلّ ما في الكون يتّجه إلى الزّوال والفناء، إلّا الذّات الأبديّة الخالدة... ذات الله سبحانه.

[1] بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٨٢، ص٦٠.

إنّ خلود ذكر الأنبياء سببه ارتباطهم بالله وبالقيم الإنسانيّة الإلهيّة الخالدة كالعدالة وطلب الحقيقة، وخلود اسم رجل في التّاريخ مثل "**حاتم الطّائيّ**" يعود إلى ارتباطه بواحدة من تلك القيم هي "**السّخاء**".

صفة الخلود والأبديّة يختصّ بها الله تعالى من بين سائر الموجودات، ومن هنا ينبغي أن يُبدأ كلّ شيء باسمه وتحت ظلّه وبالاستمداد منه. ولذلك كانت البسملة أوّل آية في القرآن الكريم.

ولذلك جاء في الحديث النّبويّ الشريف: "**كُلُّ أمْرٍ ذِي بَال لا يُذْكَرْ اسْمُ اللهِ فيه فَهُوَ أَبْتَرُ**"[1].

وأمير المؤمنين عليه السلام بعد نقله لهذا الحديث الشريف قَالَ: "**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ أَوْ يَعْمَلَ عَمَلاً فَيَقُولُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فَإِنَّهُ يُبَارَكَ فيهِ**"[2].

ويقول الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام: "... **وَيَنْبَغي الاتْيَانُ بِهِ عِنْدَ افْتِتَاحِ كُلِّ أَمْر عَظِيم أَوْ صَغِير لِيُبَارَكَ فيهِ**"[3].

بعبارة موجزة: بقاء العمل وخلوده يتوقّف على ارتباطه بالله.

٢. كلمة الله

وهي علم للذات الإلهيّة المقدّسة وهي أشمل أسماء ربّ العالمين، فكلّ اسم ورد لله في القرآن الكريم وسائر المصادر الإسلاميّة يُشير إلى جانبٍ معيّن من صفات الله. والاسم الوحيد الجامع لكلّ الصفات والكمالات الإلهيّة أو الجامع لكلّ صفات الجلال والجمال هو "الله".

ولذلك اعتُبرت بقيّة الأسماء صفات لله تعالى مثل: "**الغفور**" و"**الرحيم**" و"**السميع**" و"**العليم**" و"**البصير**" و"**الرزّاق**" و"**ذو القوّة**" و"**المتين**" و"**الخالق**".

[1] وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج٧، ص١٧٠.

[2] بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٨٩، ص٢٤٣.

[3] التفسير الصافي، الكاشاني، ج١، ص٨٢.

٣. الرّحمة الإلهيّة الخاصّة والعامّة:

المشهور بين جماعة من المفسّرين أنّ صفة "**الرحمن**" تُشير إلى الرحمة الإلهيّة العامّة، وهي تشمل الأولياء والأعداء، والمؤمنين والكافرين، والمحسنين والمسيئين، فرحمته تعمّ المخلوقات، وخوان فضله ممدود أمام جميع الموجودات، وكلّ العباد يتمتّعون بموهبة الحياة، وينالون حظّهم من مائدة نعمه اللّامتناهية. وهذه هي رحمته العامّة الشاملة لعالم الوجود كافّة وما فيه من كائنات.

وصفة "**الرحيم**" إشارة إلى رحمته الخاصّة بعباده الصالحين المطيعين، قد شملتهم بإيمانهم وعملهم الصالح، وَحُرِم منها المنحرفون والمجرمون.

وفي رواية عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قَالَ: "**وَاللهِ إلهُ كُلِّ شَيْءٍ الرَّحْمنُ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، الرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنينَ خَاصَّةً**".

٤- الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

بعد البسملة، أوّل واجبات العباد أن يستحضروا دوماً مبدأ عالم الوجود، ونِعَمه اللامتناهية، هذه النِّعم الّتي تُحيطنا وتغمر وجودنا، وتهدينا إلى معرفة الله من جهة، وتدفعنا إلى طريق العبوديّة من جهة أُخرى.

وعندما نقول إنّ النِّعم تُشكِّل دافعاً ومحرِّكاً إلى طريق العبوديّة فذلك، لأنّ الإنسان مفطور على البحث عن صاحب النعمة حينما تصله النعمة، ومفطور على أن يشكر المنعم على إنعامه.

من هنا فإنّ علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرّقون في بحوثهم الأوّلية لهذا العلم إلى "وجوب شكر المنعم" باعتباره أمراً فطريّاً وعقليّاً دافعاً إلى معرفة الله سبحانه.

وإنّما قُلنا إنّ النِّعم تهدينا إلى معرفة الله، لأنّ أفضل طريق وأشمل سبيل لمعرفته سبحانه، دراسة أسرار الخليقة، وخاصّة ما يرتبط بوجود النِّعم في حياة الإنسان.

خطّ التوحيد الّذي دعا إليه الأنبياءعليهم السلام يتميّز بنبذ فكرة الأرباب المتعدّدين، وهداية البشريّة نحو الإله الواحد الأحد، وانطلاقاً من هذه الأهميّة القصوى للقضاء على الآلهة المتعدّدة جاء التأكيد القرآنيّ بعد آية البسملة بقوله: ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

وبهذا يرسم القرآن الكريم خطّ البطلان على جميع الأرباب المزيّفين، ويغرس محلّها أزهار التوحيد والاتّحاد.

هذا التأكيد يتلوه الإنسان المسلم عشر مرّات في صلواته اليوميّة ـ على الأقل ـ لتترسّخ فكرة التوحيد، وفكرة رفض ربوبيّة كلّ الأرباب المدّعاة، غير ربوبيّة الله ربّ العالمين.

ربوبيّة الله طريق لمعرفة الله

كلمة (الربّ)، وإن كانت تعني في الأصل المالك والصاحب، إلّا أنّها تتضمّن أيضاً معنى الصاحب المتعهّد بالتربية والرعاية.

وإمعان النظر في المسيرة التكامليّة للموجودات الحيّة، وفي التغييرات والتحوّلات الّتي تجري في عالم الجماد، وفي الظروف الّتي تتوفّر لتربية الموجودات، وفي تفاصيل هذه الحركات والعمليّات، هو أفضل طريق لمعرفة الله. والتنسيق اللاإراديّ بين أعضاء جسدنا هو نموذج حيّ لذلك.

يقول تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[1].

[1] سورة فصّلت، الآية: ٥٣.

خلاصة

من خصائص سورة الحمد أنّها أساس القرآن وأمّ الكتاب

أهمّيّة هذه السّورة تتّضح من محتواها، فهي في الحقيقة عرض لكلّ محتويات القرآن من توحيد ومعاد وهداية وضلال.. تتضمّن هذه السّورة مراحل الإيمان الثلاث: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان. ويُمكن تقسيم هذه السّورة، من منظار آخر، إلى قسمين: قسم يختصّ بحمد الله والثناء عليه، وقسم يتضمّن حاجات العبد.

للمطالعة

الإعجاز العلميّ في القرآن

كلّ الكواكب متحرّكة

لقد أصبح أمراً ثابتاً ومؤكّداً في علم الفلك الحديث بأنّه لا وجود لكوكب ساكن في الكون وأنّه لا صحّة لفكرة تقسيم السيّارات والكواكب إلى ثابتة ومتحرّكة كما كان يقول القدماء، بل إنّه لا وجود حتّى لكوكب واحد ساكن في هذا العالم اللّامتناهي. وحتّى سنين خلت كانت السيّارات تُعدّ بحدود الـ٣٠٠ مليون بينما صاروا يعجزون اليوم عن عدّها وإحصائها.

وقد ورد في القرآن الكريم بصراحة قول الله تعالى: ﴿**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ أي أنّه لا وجود للكوكب الثابت بل إنّ كلّ واحد منها يسبح ويتحرّك في المدار الّذي حُدِّد له من قِبَل الله تعالى، في حين أنّ بطليموس كان يقول بأنّ الفلك الثامن ما هو إلّا عبارة عن فلك ثابت وأنّ الكواكب الموجودة فيه كواكب ساكنة، لكنّ القرآن الكريم يؤكّد أنّ الجميع في حالة حركة مستمرّة.

الجبال هي المسامير المُثبتة للأرض

لقد أصبح من الأمور الثابتة اليوم كون الجبال الواقعة فوق الأرض والممتدّة جذورها في عمق الكرة الأرضيّة هي السبب في استقرار الأرض. فلولا وجود هذه الجبال فإنّ هذه الكرة الأرضيّة الّتي تقطع أربعة فراسخ في حركتها الانتقاليّة في كلّ دقيقة وأربعة فراسخ أخرى في حركتها الموضعيّة في كلّ ثانية و٢٤٠ فرسخاً في حركتها الدورانيّة حول نفسها كانت في طريقها إلى الزوال والتلاشي، لكنّ هذه الجبال هي الّتي تمنع تلاشيها. وهذا الأمر سبق أن أشار إليه القرآن المجيد وأكّده

قبل ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة مضت حيث قال تعالى: ﴿**وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾ كما جاء في سورة النبأ، الآية: ٧.

وكما يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في إحدى خطبه الغراء: "**فطر الخلائق بقدرته ووتّد بالصخور ميدان أرضه**"[١].

[١] نهج البلاغة، ج١، ص٤١.

الدرس الرابع عشر: تفسير سورة الفاتحة (٢)

أهداف الدرس

١- أن يتبيّن الطالب بعضاً من معاني آيات سورة الفاتحة المباركة.

٢- أن يتعرّف إلى صفات أهل الهدى وأهل الضلال.

١- مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

هذه الآية تُلفت الأنظار إلى أصل هامّ آخر من أصول الإسلام، هو يوم القيامة: ﴿**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، وبذلك يكتمل محور المبدأ والمعاد، الّذي يُعتبر أساس كلّ إصلاح أخلاقيّ واجتماعيّ في وجود الإنسان.

تعبير (مَالِكِ) يوحي بسيطرة الله التامّة وهيمنته المستحكمة على كلّ شيء وعلى كلّ فرد في ذلك اليوم، حيث تحضر البشريّة في تلك المحكمة الكبرى، وتقف أمام مالكها الحقيقيّ للحساب، وترى كلّ ما فعلته وقالته، بل وحتّى ما فكّرت به، حاضراً..

الإيمان بيوم القيامة، وبتلك المحكمة الإلهيّة الكبرى الّتي يخضع فيها كلّ شيء للإحصاء الدقيق، له الأثر الكبير في ضبط الإنسان أمام الزلّات، ووقايته من السقوط في المنحدرات. وأحد أسباب قدرة الصلاة على النهي عن الفحشاء والمنكر هو أنّها تُذكِّر الإنسان بالمبدئ المطّلع على حركاته وسكناته، وتُذكّره أيضاً بمحكمة العدل الإلهيّ الكبرى.

التركيز على مالكيّة الله ليوم القيامة يُقارع من جهة أُخرى معتقدات المشركين ومنكري المعاد، لأنّ الإيمان بالله عقيدة فطريّة عامّة، حتّى لدى مشركي العصر الجاهليّ، وهذا ما يُوضّحه القرآن إذ يقول: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**

لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1] بينما الإيمان بالمعاد ليس كذلك، فهؤلاء المشركون كانوا يواجهون مسألة المعاد بعناد واستهزاء ولجاج: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾**[2].

وروي عن الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام: **"أَنَّه كَانَ إذا قَرَأَ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يُكَرِّرُهَا حَتَّى يَكَاد أَنْ يَمُوتَ"**[3].

أمّا تعبير **"يَوْمِ الدِّينِ"**، فحيثما ورد في القرآن يعني يوم القيامة، وتكرّر ذلك في أكثر من عشرة مواضع من كتاب الله العزيز، وفي الآيات ١٧ و ١٨ و ١٩ من سورة الانفطار ورد هذا المعنى بصراحة.

وأمّا سبب تسمية هذا اليوم بيوم الدِّين، فلأنّ يوم القيامة يوم الجزاء، و **"الدِّين"** في اللغة **"الجزاء"**، والجزاء أبرز مظاهر القيامة، ففي ذلك اليوم تُكشف السرائر ويُحاسب النّاس عمّا فعلوه بدقّة، ويرى كلّ فرد جزاء ما عمله صالحاً أم طالحاً.

وفي حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام يقول: **"يَوْمُ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ"**[4] **"والدِّين"** إستناداً إلى هذه الرواية يعني **"الحساب"**.

٢- إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

في هذه الآية يتغيّر لحن السّورة، إذ يبدأ فيها دعاء العبد لربّه والتضرّع إليه. الآيات السابقة دارت حول حمد الله والثناء عليه، والإقرار بالإيمان والاعتراف بيوم القيامة. وفي هذه الآية يشعر الإنسان ـ بعد رسوخ أساس العقيدة ومعرفة الله في نفسه ـ بحضوره بين يدي الله... يُخاطبه ويُناجيه، ويُقرّ أوّلاً بتعبّده، ثمّ يستمدّ العون منه وحده دون سواه: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**.

---

[1] سورة الزمر، الآية: ٣٨.

[2] سورة سبأ، الآيتان: ٧ ـ ٨.

[3] وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج٦، ص١٥٢.

[4] الأمثل، مكارم الشيرازي، ج١، ص٤٨.

بعبارة أُخرى: عندما تتعمّق مفاهيم الآيات السابقة في وجود الإنسان، وتتنوّر روحه بنور ربّ العالمين، ويُدرك رحمة الله العامّة والخاصّة، ومالكيّته ليوم الجزاء، يكتمل الإنسان في جانبه العقائديّ. وهذه العقيدة التوحيديّة العميقة، ذات عطاء يتمثّل.

أوّلاً: في تربية الإنسان العبد الخالص لله، المتحرّر من العبوديّة للآلهة الخشبيّة والبشريّة والشهويّة.

ثانياً: في الاستمداد من ذات الله تبارك وتعالى خاصّة دون غيره.

الآيات السابقة تحدّثت في الحقيقة عن توحيد الذّات والصِّفات، وهذه الآية تتحدّث عن توحيد العبادة وتوحيد الأفعال.

وقد ذكرنا في درس سابق معنى هذا التوحيد الّذي يعني أنّ الله هو المؤثّر الحقيقيّ في العالم **(لاَ مُؤَثِّرَ فَي الْوُجُودِ إلاَّ الله)**. وهذا لا يعني إنكار عالم الأسباب، وتجاهل المسبّبات، بل يعني الإيمان بأنّ تأثير الأسباب إنّما كان بأمر الله، فالله سبحانه هو الّذي يمنح النار خاصّيّة الإحراق، والشمس خاصّيّة الإنارة، والماء خاصّيّة الإحياء.

ثمرة هذا الاعتقاد أنّ الإنسان يُصبح معتمداً على (الله) دون سواه، ويرى أنّ الله هو القادر العظيم فقط، ويرى ما سواه شبحاً لا حول له ولا قوّة بل لا يرى شيئاً غير الله، وهو وحده سبحانه اللائق بالاتّكال والاعتماد عليه في كلّ الأمور.

وبالتّالي هو الواحد الّذي يستحقّ العبادة فلا معبود سواه.

٣- اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ

بعد أن يُقرّ الإنسان بالتسليم لربّ العالمين، ويرتفع إلى مستوى العبوديّة لله والاستعانة به تعالى، يتقدّم هذا العبد بأوّل طلب من بارئه، وهو الهداية إلى الطريق المستقيم، طريق الطّهر والخير، طريق العدل والإحسان، طريق الإيمان والعمل الصالح، ليهبه الله نعمة الهداية كما وهبه جميع النِّعم الأخرى.

الإنسان في هذه المرحلة مؤمن طبعاً وعارف بربّه، لكنّه معرّض دوماً بسبب العوامل المضادّة إلى سلب هذه النعمة والانحراف عن الصراط المستقيم. من هنا كان عليه لزاماً أن يُكرّر عشر مرّات في اليوم على الأقلّ طلبه من الله أن يقيه العثرات والانحرافات.

أضف إلى ما تقدّم أنّ الصراط المستقيم هو دين الله، وله مراتب ودرجات لا يستوي في طيّها جميع النّاس، ومهما سما الإنسان في مراتبه، فثمّة مراتب أُخرى أبعد وأرقى، والإنسان المؤمن توّاق دوماً إلى السير الحثيث على هذا السلّم الارتقائيّ، وعليه أن يستمدّ العون من الله في ذلك.

عن الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، في تفسير ﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾ قال: أي: "**أَدِمْ لَنَا تَوْفِيقَكَ الَّذِي أَطَعْنَاكَ بِهِ فِي مَا مَضى مِنْ أيَّامِنَا، حَتَّى نُطِيعَكَ فِي مُسْتَقْبَلِ أَعْمَارِنَا**"[1].

وقال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: "**يَعْنِي أَرْشِدْنَا لِلزُومِ الطَّرِيقِ الْمُؤَدّي إلى مَحَبَّتِكَ، وَالْمُبلِّغِ إلى جَنّتكَ، وَالْمَانِعِ مِنْ أَنْ نَتّبعَ أَهْواءَنَا فَنَعْطَبَ، أو أَنْ نَأْخُذَ بِآرَائِنَا فَنَهْلَكَ**"[2].

٤- صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّآلّينَ

خطّان منحرفان!

هذه الآية تفسير واضح للصراط المستقيم المذكور في الآية السابقة، إنّه صراط المشمولين بأنواع النِّعم (مثل نعمة الهداية، ونعمة التوفيق، ونعمة القيادة الصالحة، ونعمة العلم والعمل والجهاد والشهادة) لا المشمولين بالغضب الإلهيّ بسبب سوء فعالهم وزيغ قلوبهم، ولا الضائعين التائهين عن جادّة الحقّ والهدى.

---

[1] معاني الأخبار، الصدوق، ص٣٣.

[2] م. ن، ص٣٤.

ولأنّنا لسنا على معرفة تامّة بمعالم طريق الهداية، فإنّ الله تعالى يأمرنا في هذه الآية الكريمة أن نطلب منه هدايتنا إلى طريق الأنبياء والصالحين من عباده: (**الَّذِينَ أَنْعَمَت عَلَيْهِمْ**)، ويُحذّرنا كذلك من أنّ أمامنا طريقين منحرفين، وهما طريق (**الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**)، وطريق (**الضّالّينَ**)، وبذلك يتبيّن للإنسان طريق الهداية بوضوح.

١. من هم (الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)؟

تُبيّن الآية الكريمة من سورة النساء من هم الّذين أنعم الله عليهم،إذ يقول تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾[١].

والآية تُقسّم الّذين أنعم الله عليهم إلى أربعة مجاميع: الأنبياء، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين.

٢. من هم (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)، ومن هم (الضَّالِّينَ)؟

يتّضح من الآية الكريمة أنّ (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) و (الضّالِّينَ) مجموعتان لا مجموعة واحدة، وأمّا الفرق بينهما: فإنّه يُستفاد من استعمال التعبيرين في القرآن أنّ "**المغضوب عليهم**" أسوأ وأحطّ من "**الضّالّين**"، أي إنّ الضّالين هم التائهون العاديّون، والمغضوب عليهم هم المنحرفون المعاندون، أو المنافقون، ولذلك استحقّوا لعن الله وغضبه.

قال تعالى: ﴿**وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ**﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ**﴾[٣].

[١] سورة النساء، الآية: ٦٩.

[٢] سورة النحل، الآية: ١٠٦.

[٣] سورة الفتح، الآية: ٦.

(الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) إذاً يسلكون . إضافة إلى كفرهم . طريق اللّجاج والعناد ومعاداة الحقّ، ولا يألون جهداً في توجيه ألوان التنكيل والتعذيب لقادة الدعوة الإلهيّة.

يقول سبحانه: ﴿**وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ**﴾[1].

خلاصة

في هذه السورة المباركة يكون الإنسان بين يدي الله، فهو مالك يوم الدِّين أي يوم الحساب، يُخاطبه ويُناجيه، يتحدّث إليه أوّلاً عن تعبّده، ثمّ يستمدّ العون منه وحده دون سواه قائلاً: "**إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**". ويسأله الهداية: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ, أي طريق الطّهر والخير، طريق العدل والإحسان، طريق الإيمان والعمل الصالح، الّذي هو طريق الأنبياء والصالحين من عباده لا طريق المغضوب عليهم والضالّين.

[1] سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

للمطالعة

من اسرار القرآن

من الأسرار الّتي أشار إليها القرآن الكريم كرويّة الأرض، قال تعالى: ﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا**﴾[1]. ﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ**﴾[2]. ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ**﴾[3].

ففي هذه الآيات الكريمة دلالة على تعدّد مطالع الشمس ومغاربها، وفيها إشارة إلى كرويّة الأرض، فإنّ طلوع الشمس على أيّ جزء من أجزاء الكرة الأرضيّة يُلازم غروبها عن جزء آخر، فيكون تعدّد المشارق والمغارب واضحاً لا تكلّف فيه ولا تعسّف. وقد حمل القرطبيّ وغيره المشارق والمغارب على مطالع الشمس ومغاربها باختلاف أيّام السنة، لكنّه تكلّف لا ينبغي أن يُصار إليه، لأنّ الشمس لم تكن لها مطالع معيّنة ليقع الحلف بها، بل تختلف تلك باختلاف الأراضي. فلا بدّ من أنْ يُراد بها المشارق والمغارب الّتي تتجدّد شيئاً فشيئاً باعتبار كرويّة الأرض وحركتها.

وفي أخبار أئمّة الهدى من أهل البيت عليهم السلام وأدعيتهم وخطبهم ما يدلّ على كرويّة الأرض.

ومن ذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "صحبني رجل كان يُمسي بالمغرب ويغلس بالفجر، وكنت أنا أُصلّي المغرب إذا غربت الشمس، وأصلّي الفجر إذا استبان لي الفجر. فقال لي الرجل: ما يمنعك أن تصنع مثل ما أصنع؟ فإنّ الشمس تطلع على قوم قبلنا وتغرب عنّا، وهي طالعة على قوم آخرين بعد. فقلت: إنّما علينا أن نُصلّي إذا وجبت الشمس عنّا وإذا طلع

[1] سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.

[2] سورة الصافات، الآية: ٥.

[3] سورة المعارج، الآية: ٤٠.

الفجر عندنا، وعلى أولئك أن يُصلّوا إذا غربت الشمس عنهم"[1].

يستدلّ الرجل على مراده باختلاف المشرق والمغرب الناشئ عن استدارة الأرض، ويُقرّه الإمام عليه السلام على ذلك ولكن يُنبّهه على وظيفته الدينيّة.

ومثله قول الإمام عليه السلام في خبر آخر: "**إنّما عليك مشرقك ومغربك**"[2].

ومن ذلك ما ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه عند الصباح والمساء: "**وجعل لكلّ واحد منهما حدّاً محدوداً، وأمداً ممدوداً، يولج كلّ واحد منهما في صاحبه، ويولج صاحبه فيه بتقدير منه للعباد**"[3].

[1] الوسائل، ج ١، ص ٢٣٧، باب ١١٦، أنّ أوّل وقت المغرب غروب الشمس.

[2] من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٢١.

[3] الصحيفة السجّادية الكاملة.

الدرس الخامس عشر: تفسير سورة الضحى

أهداف الدرس

١- أن يطّلع الطالب على محتوى السورة وسبب نزولها.

٢- أن يتبيّن بعضاً من معاني آياتها.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

١- في رحاب السّورة

هذه السّورة نزلت في مكّة. وحسب بعض الرّوايات أنَّها نزلت حين كان الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم متألّماً بسبب تأخّر نزول الوحي، وتقوُّل الأعداء نتيجة هذا الانقطاع المؤقّت، نزلت السّورة كغيث على قلب النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وأمدّته بطاقة جديدة، وقطعت ألسن الأعداء.

هذه السّورة تبدأ بقَسَمَين، ثمّ تُبشِّر النّبيّ بأنّ الله لا يتركه أبداً.

ثمّ تُبشّره بعطاء ربّانيّ يجعله راضياً، ثمّ تعرض له صوراً من حياته السابقة تتجسّد فيها الرحمة الإلهيّة الّتي كانت تشمله دائماً وتحميه وتسنده في أشدّ اللحظات.

وفي نهاية السّورة تتكرّر الأوامر الإلهيّة برعاية اليتيم والسائل، وبإظهار النِّعم الإلهيّة (شكراً لهذه النِّعم).

٢- سبب النّزول

رويَ عن ابن عبّاس قال: "**احتبس الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمسة عشر يوماً،**

فقال المشركون إنّ محمّداً قد ودّعه ربّه وقلاه، ولو كان أمره من الله تعالى لتتابع عليه، فنزلت السّورة"[1].

٣- التّفسير

في بداية السّورة المباركة قسَمان: الأوّل بالنّور، والثّاني بالظلمة، ويقول سبحانه:
﴿**وَالضُّحَى**﴾ وهو أوّل النهار حين تغمر شمسه كلّ مكان.

﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى**﴾ أي إذا عمّت سكينته كلّ مكان.

وبين القَسَمين ومحتوى السّورة تشابه كبير وارتباط وثيق. النهار مثل نزول نور الوحي على قلب النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والليل كانقطاع الوحي المؤقّت، وهو أيضاً ضروريّ في بعض المقاطع الزمنيّة.

وبعد القَسَمين، يأتي جواب القَسَم، فيقول سبحانه: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾.
"**قلى**" من "**قلا**". على وزن صدا، وهو شدّة البغض، ومن القَلو أيضاً بمعنى الرّمي. وكلا المعنيين يعودان إلى أصل واحد فكأنّ المقلوّ هو الّذي يقذفه القلب من بُغضه فلا يَقبَلُه.

على أيّ حال، في هذا التعبير سَكنٌ لقلب النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتسلٍّ له، ليعلم أنّ التأخير في نزول الوحي إنّما يحدث لمصلحة يعلمها الله تعالى، وليست كما يقول الأعداء. لترك الله نبيّه أو لسخطه عليه. فهو مشمولٌ دائماً بلطف الله وعنايته الخاصّة، وهو دائماً في كنف حماية الله سبحانه.

﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى**﴾

أنت في هذه الدنيا مشمول بألطاف الله تعالى، وفي الآخرة أكثر وأفضل. أنت آمن من غضب الله في الأمد القريب والبعيد. وباختصار أنت عزيز في الدنيا والآخرة... في الدنيا عزيز وفي الآخرة أعزّ...

[1] بحار الأنوار، ج١٦، ص١٣٦.

وتأتي البشرى للنبيّ الكريم لتقول له: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾، وهذا أعظم إكرام وأسمى احترام من ربّ العالمين لعبده المصطفى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. فالعطاء الرّبانيّ سيُغدق عليه حتّى يرضى... حتّى ينتصر على الأعداء ويعمّ نور الإسلام الخافقين، كما أنّه سيكون في الآخرة أيضاً مشمولاً بأعظم الهبات الإلهيّة.

٤- فلسفة انقطاع الوحي:

يتبيّن من الآيات الكريمة في هذه السّورة أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لا يملك لنفسه شيئاً إلاّ من عند الله... لم يكن له اختيار حتّى في نزول الوحي. متى ما شاء الله ينزل الوحي ومتى ما شاء ينقطع. ولعلّ انقطاع الوحي كان ردّاً على أُولئك الّذين كانوا يُطالبون النبيّ بمعاجز مقترحة وفق أذواقهم، أو كانوا يقترحون عليه تغيير بعض الأحكام والنصوص، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول لهم: ﴿**قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ**﴾[1].

٥- الشكر على كلّ هذه النِّعم الإلهيّة:

﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾

ذكرنا أنّ هدف هذه السّورة المباركة تسلية قلب النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبيان ألطاف الله الّتي شملته. وهذه الآيات المذكورة أعلاه تُجسّد للنّبي ثلاث هبات من الهبات الخاصّة الّتي أنعم الله بها على النّبيّ، ثمّ تأمره بثلاثة أوامر.

النعمة الأولى:

﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾

[1] سورة يونس، الآية: ١٥.

فقد كنت يا محمّد في رحم أُمّك حين توفّي والدك فآويتك إلى كنف جدّك عبد المطّلب **"سيّد مكّة"**.

وكنت في السادسة حين توفّيت والدتك، فزاد يتمك، لكنّني زدت حبّك في قلب **"عبد المطّلب"**.

وكنت في الثامنة حين رحل جدّك "عبد المطّلب"، فسخّرت لك عمّك **"أبا طالب"**.

النعمة الثّانية:

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾

نعم، لم تكن أيّها النّبيّ على علم بالنبوّة والرسالة، ونحن أنزلنا هذا النور على قلبك لتهدي به الإنسانيّة. وهذا المعنى ورد في قوله تعالى أيضاً: **﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**[1].

من الواضح أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان فاقداً لهذا الفيض الإلهيّ قبل وصوله إلى مقام النبوّة، فالله سبحانه أخذ بيده وهداه وبلغ به هذا المقام. وإلى هذا تُشير الآية (٣) من سورة يوسف: **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾**.

من المؤكّد أنّه لولا الهداية الإلهيّة والإمداد الغيبيّ ما استطاع الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يهتدي المسير نحو الهدف المقصود.

من هنا فإنّ المقصود من الضلالة في كلمة **"ضالّاً"** في الآية ليس نفي الإيمان والتوحيد والطهر والتقوى عن النّبيّ، بل بقرينة الآيات الّتي أشرنا إليها تعني نفي العلم بأسرار النبوّة وبأحكام الإسلام، وتعني عدم معرفة هذه الحقائق، كما أكّد على ذلك كثير من المفسّرين. لكنّه صلى الله عليه وآله وسلم بعد البعثة اهتدى إلى هذه الأُمور بعون الله تعالى.

[1] سورة الشورى، الآية: ٥٢.

النعمة الثالثة:

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾

لقد جعلناك تستأثر باهتمام "**خديجة**" هذه المرأة المخلصة الوفيّة لتضع كلّ ثروتها تحت تصرّفك من أجل تحقيق أهدافك، وبعد ظهور الإسلام رزقك مغانم كثيرة في الحروب ساعدتك في تحقيق أهدافك الرساليّة الكبرى.

ثمّ في الآيات التالية ثلاثة أوامر تصدر إلى الرسول باعتبارها نتيجة الآيات السابقة. والخطاب وإن كان موجّهاً إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لكنّه يشمل أيضاً كلّ المسلمين.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾

"**تقهر**" من القهر أي الغلبة مع التحقير، وأيضاً تُستعمل في كلّ واحد من المعنيين، ومعنى التحقير هنا هو المناسب.

وهذا يدلّ على أنّ هناك مسألة أهمّ من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام، وهي اللطف بهم والعطف عليهم وإزالة إحساسهم بالنقص العاطفيّ، ولذا جاء في الحديث المعروف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **"من مسح يده على رأس يتيم ترحمّاً له، كتب الله له بكلّ شعرة مرّت عليه يده حسنة"**[1].

كأنّ الله يخاطب نبيّه قائلاً: لقد كُنت يتيماً أيضاً وعانيت من آلام اليتم، والآن عليك أن تهتمّ بالأيتام كلّ اهتمام وأن تروي روحهم الظمأى بحبّك وعطفك.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾

"**نَهَرَ**" بمعنى ردّ بخشونة.

وفي معنى "**السائل**" عدّة تفاسير.

الأوّل: أنّه المتّجه بالسؤال حول القضايا العلميّة والعقائديّة والدينيّة، والدليل على ذلك هو أنّ هذا الأمر تفريع على ما جاء في الآية السابقة: **﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا**

[1] فقه الرضا، ابن بابويه، ص١٧٢.

فَهَدَى﴾، فشكر هذه الهداية الإلهيّة يقتضي أن تسعى أيّها النّبيّ في هداية السائلين، وأن لا تطرد أيّ طالب للهداية عنك.

والتّفسير الآخر: هو الفقير في المال والمتاع، والأمر يكون عندئذ ببذل الجهد في هذا المجال، وبعدم ردّ هذا الفقير السائل يائساً.

والثّالث: أنّ المعنى يشمل الفقير علميّاً والفقير ماديّاً، والأمر بتلبية احتياجات السائل في المجالين. وهذا المعنى يتناسب مع الهداية الإلهيّة لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، ومع إغنائه بعد عيلولته.

﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾

والحديث عن النعمة قد يكون باللسان، وبتعابير تنمّ عن غاية الشكر والامتنان، لا عن التفاخر والغرور. وقد تكون بالعمل عن طريق الإنفاق من هذه النعمة في سبيل الله، إنفاقاً يُبيّن مدى هذه النعمة. هذه هي خصلة الإنسان السخيّ الكريم... يشكر الله على النعمة، ويقرن الشكر بالعمل، خلافاً للسخفاء البخلاء الّذين لا يكفّون عن الشكوى والتأوّه، ولا يكشفون عن نعمة ولو حصلوا على الدنيا وما فيها، وجوههم يعلوها سيماء الفقر، وكلامهم مفعم بالتذمّر والحسرة، وعملهم يكشف عن فقر!

بينما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "**إنّ الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يُحبّ أن يرى أثر النعمة عليه**"[1].

من هنا يكون معنى الآية: بيّن ما أغدق الله عليك من نِعَم بالقول والعمل، شكراً على ما أغناك الله إذ كنت عائلاً.

بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ النعمة في الآية هي النعمة المعنويّة ومنها النبوّة والقرآن، والأمر للنبيّ بالإبلاغ والتبيين، وهذا هوالمقصود من الحديث بالنعمة.

[1] كنز العمّال، ج٦، ص٦٤١.

ويحتمل أيضاً أن يكون المعنى شاملاً للنعم الماديّة والمعنويّة، لذلك ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله: "**حدّث بما أعطاك الله، وفضّلك، ورزقك، وأحسن إليك وهداك**"[1].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "**من أُعطي خيراً فلم يُر عليه، سُمّي بغيض الله، معادياً لنعم الله**"[2].

وعن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: "**إنّ الله جميل يُحبّ الجمال، ويُحبّ أن يرى أثر النعمة على عبده**"[3].

خلاصة

القرآن يتحدّى

يتبيّن من الآيات الكريمة في هذه السّورة أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لا يملك لنفسه شيئاً إلّا من عند الله، وكما تُجسِّد للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث هبات من الهبات الخاصّة الّتي أنعم الله بها عليه: الرعاية عند اليتم، والهدى بالوحي، والغنى بعد الفقر.

وتتضمّن هذه السورة المباركة إشارة مضمونيّة إلى مسألة أهمّ من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام، وهي اللطف بهم والعطف عليهم وإزالة إحساسهم بالنقص العاطفيّ.

الإنسان السخيّ الكريم... يشكر الله على النعمة، ويقرن الشكر بالعمل، ويحدّث بها حديث الشكر لا حديث الغرور.

---

[1] مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٧.

[2] تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١٩٢، وقريب من هذا المعنى في الكافي، ج ٦، كتاب الزي والتجميل، حديث ٢.

[3] فروع الكافي، ج٦، ص ٤٣٨.

للمطالعة

القرآن يتحدّى

عن هشام بن الحكم قال: اجتمع ابن أبي العوجاء، وأبو شاكر الديصانيّ الزنديق، وعبد الملك البصريّ، وابن المقفّع، عند بيت الله الحرام، يستهزئون بالحجّ ويطعنون بالقرآن. فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض كلّ واحد منّا ربع القرآن، وميعادنا من قابل في هذا الموضع، نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كلّه، فإنّ في نقض القرآن إبطال نبوّة محمّد، وفي إبطال نبوّته إبطال الإسلام، وإثبات ما نحن فيه، فاتّفقوا على ذلك وافترقوا. فلمّا كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام، فقال ابن أبي العوجاء: أما أنا فمفكّر منذ افترقنا في هذه الآية: ﴿**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا**﴾[1] فما أقدر أن أضمّ إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئاً، فشغلتني هذه الآية عن التفكّر في ما سواها.

فقال عبد الملك: وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾[2] ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال أبو شاكر: وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾[3] لم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال ابن المقفّع: يا قوم إنّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية: ﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء**

[1] سورة يوسف، الآية: ٨٠.

[2] سورة الحجّ، الآية: ٧٣.

[3] سورة الأنبياء، الآية: ٢٤.

وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1] لم أبلغ غاية المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

قال هشام بن الحكم: فبينما هم في ذلك، إذ مرّ بهم جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام فقال: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[2] فنظر القوم بعضهم إلى بعض وقالوا: لئن كان للإسلام حقيقة لما انتهت أمر وصيّة محمّد إلّا إلى جعفر بن محمّد، والله ما رأيناه قطّ إلّا هبناه واقشعرّت جلودنا لهيبته، ثم تفرّقوا مقرّين بالعجز[3].

[1] سورة هود، الآية: ٤٤.

[2] سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

[3] الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج ٢، ص ١٤٢ – ١٤٣.

الدرس السادس عشر: تفسير سورة البيّنة

أهداف الدرس

١- أن يتبيّن الطالب بعضاً من مفاهيم السورة المباركة.

٢- أن يتعرّف إلى خير البريّة وشرّها.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾

١– في رحاب السورة

المشهور أنّ هذه السّورة نزلت في المدينة، ومحتواها يؤيّد ذلك، إذ تحدّثت في مواضع متعدّدة عن أهل الكتاب. وغالباً ما واجه المسلمون أهلَ الكتاب في المدينة.

أضف إلى ذلك أنّ السّورة تحدّثت عن الصلاة والزكاة، والزكاة ـ مع أنّها شُرّعت في مكّة ـ اتّخذت طابعها الرسميّ الواسع في المدينة.

هذه السّورة تناولت رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما فيها من دلائل بيّنة. هذه الرسالة الّتي كان أهل الكتاب ينتظرونها، لكن حين ظهرت، أعرض عنها فريقٌ منهم لما وجدوا فيها من خطر على مصالحهم الشخصيّة.

والسّورة تُقرّر حقيقة وجود الإيمان بالله والتوحيد والصلاة والصيام في كلّ الأديان ودعوات الأنبياء عليهم السلام باعتبارها أُصولاً ثابتة خالدة.

وفي مقطع آخر من السّورة بيان عن مواقف أهل الكتاب والمشركين تجاه الإسلام... بعضهم آمن وعمل صالحاً فهو خير المخلوقات، وبعضهم كفر وأشرك فهو شرّ البريّة.

ذلك دين القيّمة:

في بداية السّورة ذكر لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) ومشركي العرب قبل ظهور الإسلام، فهؤلاء كانوا يدّعون أنّهم غير منفكّين عن دينهم إلاّ بدليل واضح قاطع.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

و"**البيّنة**" الّتي أرادوها: رسول من الله يتلو عليهم كتاباً مطهّراً من ربّ العالمين: **﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾**.

وهذه الصحف فيها من الكتابة ما هو صحيح وثابت وذو قيمة.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

كان هذا ادّعاؤهم قبل ظهور الإسلام، وحينما ظهر ونزلت آياته تغيّر هؤلاء، واختلفوا وتفرّقوا! وما تفرّقوا إلاّ بعد أن جاءهم الدليل الواضح والنبيّ الصادح بالحقّ.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

فالآيات الأُولى لهذه السّورة المباركة تتحدّث عن أهل الكتاب والمشركين الّذين كانوا يدّعون أنّهم سوف يقبلون الدعوة إنّ جاءهم نبيٌّ بالدلائل الساطعة.

لكنّهم أعرضوا حين ظهر، وجابهوه، إلاّ فريق منهم آمن واهتدى.

وهذا المعنى يشبه ما جاء في قوله تعالى: **﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ**

اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

نعلم أنّ أهل الكتاب كانوا ينتظرون مثل هذا الظهور، ولا بدّ أن يكون مشركو العرب مشاركين لأهل الكتاب في هذا الانتظار لما كانوا يرون فيهم من علم ومعرفة، ولكن حين تحقّقت آمالهم غيّروا مسيرهم والتحقوا باعداء الدعوة.

ثمّة تفسير آخر للآية هو أنّ الله لا يترك أهل الكتاب والمشركين لحالهم حتّى يُتمّ الحجّة عليهم ويُرسل إليهم البيّنة ويُبيّن لهم الطريق. ولذلك أرسل إليهم نبيّ الإسلام لهدايتهم.

بناء على هذا التّفسير، هذه الآية تُشير إلى قاعدة اللطف الّتي يتناولها علم الكلام وتُقرّر أن يبعث الله إلى كلّ قوم دلائل واضحة ليتمّ الحجّة عليهم.

على أيّ حال، "**البيّنة**" في الآية هي الدليل الواضح، ومصداقها حسب الآية الثّانية شخص "رسول الله" وهو يتلو عليهم القرآن.

"**صحف**" جمع "**صحيفة**"، وتعني ما يُكتب عليه من الورق، والمقصود بها هنا محتوى هذه الأوراق، إذ نعلم أنّ الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يتلو شيئاً عليهم من الأوراق.

و"**مطهّرة**" أي طاهرة من كلّ ألوان الشرك والكذب والباطل، ومن تلاعب شياطين الجنّ والإنس، كما جاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ**﴾[2].

جملة (فيها كتب قيّمة) إشارة إلى أنّ ما في هذه الصحف السماويّة خالٍ من الانحراف والاعوجاج. من هنا فإنّ هذه "**الكتب**" تعني المكتوبات، أو تعني الأحكام والتشريعات المنصوصة من الله، لأنّ الكتابة جاءت بمعنى تعيين الحكم أيضاً، كقوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾[3].

وبهذا يكون معنى "**قيّمة**" سويّة ومستقيمة، أو ثابتة ومستحكمة، أو ذات قيمة، أو

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٨٩.

[2] سورة فصّلت، الآية: ٤٢.

[3] سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

كلّ هذه المعاني مجتمعة.

ويُحتمل أيضاً أن يكون المعنى هو أنّ القرآن فيه الكتب السماويّة القيّمة السابقة لأنّه يضمّ جميع محتوياتها وزيادة.

ويلفت النظر تقدّم ذكر أهل الكتاب على المشركين في الآية الأولى، والاقتصار على ذكر أهل الكتاب في الآية الرابعة دون ذكر المشركين، بينما الآية تُريد الاثنين.

وهذا يعود ظاهراً إلى أنّ أهل الكتاب كانوا هم الروّاد في هذه المواقف، وكان المشركون تابعين لهم، أو لأنّ أهل الكتاب كانوا أهلاً للذمّ أكثر لما عندهم من علماء كثيرين، وبذلك كانوا ذوي مستوى أرفع من المشركين. فمعارضتهم ـ إذاً ـ أفظع وأبشع وتستحقّ مزيداً من التقريع.

ثمّ يتوالى التقريع لأهل الكتاب، ومن بعدهم للمشركين، لأنّهم اختلفوا في الدّين الجديد، منهم مؤمن ومنهم كافر، بينما: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾.

ثمّ تُضيف الآية القول: ﴿**وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾.

المقصود هو أنّ دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص والصلاة والزكاة وأمثالها من التعاليم. وهذه أُمورٌ معروفة فلماذا يُعرضون عنها؟.

وقوله تعالى: ﴿**مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء**﴾ أي بمجموع الدّين والشريعة، أي أنّهم أُمروا أن يعبدوا الله وأن يُخلصوا له الدّين والتشريع في جميع المجالات، فجملة ﴿**وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ تؤيّد هذا المعنى لأنّها طرحت الدّين بمفهومه الواسع.

"**حنفاء**" جمع "**حنيف**"، من الفعل الثّلاثي حَنَفَ، أي عدل عن الضلال إلى الطريق المستقيم. جملة ﴿**وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ إشارة إلى أنّ الأُصول المذكورة في الآية وهي: التوحيد الخالص، والصلاة "**الارتباط بالله**" والزكاة "**الارتباط بالنّاس**" من

الأُصول الثابتة الخالدة في جميع الأديان، بل إنّها قائمة في أعماق فطرة الإنسان. ذلك لأنّ مصير الإنسان يرتبط بالتوحيد، وفطرته تدعوه إلى معرفة المنعم وشكره، ثمّ إنّ الروح الإجتماعيّة المدنيّة للإنسان تدعوه إلى مساعدة المحرومين.

من هنا، هذه التعاليم لها جذور في أعماق الفطرة، وهي لذلك كانت في تعاليم كلّ الأنبياء السابقين وتعاليم خاتم النبيّين صلى الله عليه وآله وسلم.

٢– خير البريّة وشرّها:

الآيات السابقة تحدّثت عن انتظار أهل الكتاب والمشركين لبيّنة تأتيهم من الله، لكنّهم تفرّقوا من بعد ما جاءتهم البيّنة.

هذه الآيات تذكر مجموعتين من النّاس مختلفتين في موقفهما من الدعوة "**كافرة**" و"**مؤمنة**". تذكر الكافرين أوّلاً بالقول: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾**.

وإنّما قال "**كفروا**" لكفرهم بالدِّين المبين، وإلّا فإنّ كفرهم ليس بجديد.

وعبارة **﴿أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾** عبارة قارعة مثيرة، تعني أنّه لا يوجد بين الأحياء وغير الأحياء موجود أضلّ وأسوأ من الّذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحقّ وإتمام الحجّة، وساروا في طريق الضلال، مثل هذا المعنى ورد أيضاً في قوله تعالى: **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾**[1]، وفي قوله سبحانه يصف أهل النّار: **﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾**[2].

وهذه الآية الّتي نحن بصددها تذهب في وصف هؤلاء المعاندين إلى أبعد ممّا يذهب إليه غيرها، لأنّها تصفهم بأنّهم شرّ المخلوقات، وهذا بمثابة بيان الدليل على خلودهم في نار جهنّم.

[1] سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

[2] سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

ولمَ لا يكونون شرّ المخلوقات وقد فُتحت أمامهم جميع أبواب السعادة فأعرضوا عنها كبراً وغروراً وعناداً؟

الآية التالية تذكر المجموعة الثّانية، وهم المؤمنون وتقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾.

ثمّ ذكرت السورة جزاء هؤلاء المؤمنين، وما لهم عند الله من مثوبة: ﴿**جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾.

يُلاحظ أنّ الحديث عن المؤمنين مقرون بذكر الأعمال الصالحة، باعتبارها ثمرة دوحة الإيمان. وفي ذلك إشارة إلى أن ادّعاء الإيمان وحده لا يكفي، بل لا بدّ أن تشهد عليه الأعمال الصالحة. لكنّ الكفر وحده ـ وإن لم يقترن بالأعمال السيّئة ـ مبعث السقوط والشقاء. أضف إلى ذلك أنّ الكفر عادة منطلق لأنواع الذنوب والجرائم والانحرافات.

عبارة ﴿**أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾ تُبيّن بجلاء أنّ الإنسان المؤمن ذا الأعمال الصالحة أفضل من الملائكة، فعبارة الآية مطلقة وليس فيها استثناء. والآيات الأُخرى تشهد على ذلك أيضاً، مثل آية سجود الملائكة لآدم، ومثل قوله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[1].

هذه الآية تحدّثت عن الجزاء المادّيّ الّذي ينتظر المؤمنين، وعن الجزاء المعنويّ الروحيّ لهم، وهو رضا الله عنهم ورضاهم عنه.

إنّهم راضون عن الله لأنّ الله أعطاهم ما أرادوه، والله راضٍ عنهم لأنّهم أدّوا ما أراده منهم، وإن كانت هناك زلّة فقد غفرها بلطفه وكرمه. وأيّة لذّة أعظم من أن يشعر الإنسان بأنّه نال رضا المحبوب ووصاله ولقاءه؟

[1] سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

نعم، نعيم جسد الإنسان جنّات الخلد، ونعيم روحه رضى الله ولقاؤه.

جملة ﴿**ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾ تدلّ على أنّ كلّ هذه البركات تنطلق من "**خشية الله**"، لأنّ هذه الخشية دافع للحركة صوب كلّ طاعة وتقوى وعمل صالح.

٣- عليّ عليه السلام وشيعته خير البريّة

ثمّة روايات كثيرة من طرق أهل السنّة في مصادرهم الحديثيّة المعروفة، وهكذا في المصادر الشيعيّة، فسّرت الآية: ﴿**أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾ بأنّهم عليّ وشيعته.

فـ "**الحاكم الحسكانيّ النيسابوريّ**" عالم أهل السنّة المعروف في القرن الخامس الهجريّ نقل هذه الرّوايات في كتابه المشهور "**شواهد التنزيل**" بطرق مختلفة، ويزيد عدد هذه الرّوايات على العشرين نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

١. عن ابن عبّاس قال: عندما نزلت آية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾ قال رسول الله لعليّ: "هو أنت وشيعتك تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيّين ويأتي عدوّك غضباناً "**مقمحين**"[١].

٢. وعن جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال: كنّا جالسين عند النبيّ جوار الكعبة، فأقدم علينا عليّ، وحين رآه النبيّ قال: "**قد أتاكم أخي**"، ثمّ التفت إلى الكعبة، وقال: "**وربّ هذه البيّنة، إنّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة**".

ثمّ التفت إلينا وقال: "**أما والله إنّه أوّلكم إيماناً بالله، وأقومكم بأمر الله، وأوفاكم بعهد الله، وأقضاكم بحكم الله، وأقسمكم بالسويّة، وأعدلكم في الرعيّة وأعظمكم عند الله مزيّة**".

قال جابر: فأنزل الله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾ فكان عليّ إذا أقبل قال أصحاب محمّد: قد أتاكم خير البريّة بعد رسول الله[٢].

[١] شواهد التنزيل، ج٢، ص٣٥٧، الحديث ١١٢٦.

[٢] م.ن. ص٣٥٩، الحديث ١١٣٠.

بعض هذه الأحاديث رواه ابن حجر في الصواعق، ومحمّد الشبلنجيّ في نور الأبصار.

وجلال الدّين السيوطيّ نقل القسم الأعظم من الرّواية الأخيرة عن ابن عساكر عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

٣. في "**الدرّ المنثور**" عن ابن عبّاس قال: "**حين نزلت آية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، قال رسول الله لعليّ: "هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيّين**".

باختصار هذا الحديث من الأحاديث المعروفة المشهورة المقبولة لدى أكثر علماء الإسلام، وفيه بيان لفضيلة كبرى من فضائل عليّ وأتباعه.

وهذه الرّوايات تدلّ ضمناً على أنّ كلمة "**الشيعة**" باعتبارها اسماً لأتباع عليّ عليه السلام كانت قد شاعت منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين المسلمين على لسان الرّسول نفسه. وأُولئك الّذين يخالون أنّ الكلمة هذه ظهرت في عصور متأخّرة في خطأ كبير.

٤– منحنى الصعود والسقوط

من آيات هذه السّورة المباركة يُستفاد أنّ الإنسان فريد بين مخلوقات الكون في البون الشاسع الّذي يفصل بين منحنى ارتفاعه وسموّه وبين منحنى سقوطه وهبوطه. فإذا كان من الّذين آمنوا وعملوا الصالحات (عبارة "عملوا الصالحات" تشمل كلّ الأعمال الصالحة لا بعضها) فهو أفضل خلق الله, وإن سلك طريق الكفر والضلالة والعناد هبط إلى هوّة سحيقة وكان شرّ خلق الله.

هذا البون الشاسع بين الاتّجاهين ـ رغم خطورته وحساسيّته ـ له دلالة كبيرة على مكانة النوع البشريّ وقابليّته للتكامل. وطبيعيّ أن يكون إلى جانب هذه القابلية العظيمة إمكان عظيم للهبوط والسقوط.

خلاصة

هذه السّورة تناولت رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما فيها من دلائل بيّنة. والسّورة تُقرِّر حقيقة وجود الإيمان والتوحيد والصلاة والصيام في كلّ الأديان ودعوات الأنبياء باعتبارها أصولاً ثابتة.

الآيات الأولى لهذه السّورة المباركة تتحدّث عن أهل الكتاب والمشركين الّذين كانوا يدّعون أنّهم سوف يقبلون الدعوة إن جاءهم نبيٌّ بالدلائل الساطعة. لكنّهم أعرضوا حين ظهر، وجابهوه، إلّا فريقٌ منهم آمن واهتدى.

إنّ دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص والصلاة والزّكاة وأمثالها من التعاليم. وذكر المؤمنين مقرون بذكر الأعمال الصالحة، باعتبارها ثمرة دوحة الإيمان.

نعيم جسد الإنسان جنّات الخلد، ونعيم روحه رضا الله ولقاؤه. وخير البريّة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وشيعته.

للمطالعة

القرآن والإخبار بالغيب

أخبر القرآن الكريم في عدّة من آياته عن أمور مهمّة، تتعلّق بما يأتي من الأنباء والحوادث. وقد كان في جميع ما أخبر به صادقاً، لم يُخالف الواقع في شيء منها. ولا شكّ في أنّ هذا من الإخبار بالغيب، ولا سبيل إليه غير طريق الوحي والنبوّة.

فمن الآيات الّتي أنبأت عن الغيب قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ**﴾[1].

وهذه الآية نزلت في وقعة بدر. وقد وعد الله فيها المؤمنين بالنصر على عدوّهم وبقطع دابر الكافرين. والمؤمنون على ما هم عليه من قلّة العدد والعدّة، حتّى أنّ الفارس فيهم كان هو المقداد، أو هو والزبير بن العوّام والكافرون هم الكثيرون الشديدون في القوّة. وقد وصفتهم الآية بأنّهم ذوو شوكة، وأنّ المؤمنين أشفقوا من قتالهم، ولكنّ الله يُريد أن يُحقّ الحقّ بكلماته. وقد وفى للمؤمنين بوعده، ونصرهم على أعدائهم، وقطع دابر الكافرين.

ومنها قوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾[2].

فإنّ هذه الآيات الكريمة نزلت بمكّة في بدء الدعوة الإسلاميّة. وقد أخرج البزّار والطبرانيّ في سبب نزولها عن أنس بن مالك: إنّها نزلت عند مرور النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على أناس بمكّة، فجعلوا يغمزون في قفاه، ويقولون: "**هذا الذي يزعم أنّه نبيٌّ ومعه جبرئيل**"[3]. فأخبرت الآية عن ظهور دعوة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ونصرة الله له، وخذلانه للمشركين الّذين ناوأوه واستهزأوا بنبوّته، واستخفّوا بأمره. وكان هذا الإخبار في زمان لم يخطر فيه على بال أحد من الناس انحطاط قوّة قريش، وانكسار شوكة سلطانهم، وظهور النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عليهم.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[4].

ومن هذه الأنباء قوله تعالى: ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾[5].

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٧.

[2] سورة الحجر، الآيات: ٩٤-٩٦.

[3] لباب النقول، جلال الدين السيوطيّ، ص١٣٣.

[4] سورة التوبة، الآية: ٣٣.

[5] سورة الروم، الآيتان: ٢- ٣.

وقد وقع ما أخبر به القرآن الكريم قبل أقلّ من عشر سنين، فغلب ملك الروم، ودخل جيشه مملكة الفرس.

ومنها قوله تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾[1].

فأخبر عن انهزام جمع الكفّار وتفرّقهم وقمع شوكتهم. وقد وقع هذا في يوم بدر أيضاً حين ضرب أبو جهل فرسه، وتقدّم نحو الصفّ الأوّل قائلاً: "**نحن ننتصر اليوم من محمّد وأصحابه**" فأباده الله وجمعه، وأنار الحقّ ورفع مناره، وأعلى كلمته، فانهزم الكافرون، وظفر المسلمون عليهم حينما لم يكن يتوهّم أحد بأنّ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً – ليس لهم عدّة، ولا يصحبون غير فرس أو فرسين وسبعين بعيراً يتعاقبون عليها – يظفرون بجمع كبير تامّ العدّة وافر العدد. وكيف يستفحل أمر أولئك النفر القليل على هذا العدد الكثير، حتّى تذهب

[1] سورة القمر،الآيتان:٤٤– ٤٥.

شوكته كرماد اشتدّت به الريح، لولا أمر الله وإحكام النبوّة وصدق النيّات؟!.

ومنها قوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**﴾[1].

وقد تضمّنت هذه السورة نبأ دخول أبي لهب، ودخول زوجته، النار. ومعنى ذلك هو الإخبار عن عدم تشرّفهما بقبول الإسلام إلى آخر حياتهما، وقد وقع ذلك[2].

[1] سورة المسد، الآيات: ١ . ٢ – ٣.

[2] البيان في تفسير القرآن، السيّد أبو القاسم الخوئي، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، ٦٧ – ٧٠.

الدرس السابع عشر: تفسير سورة الجمعة

أهداف الدرس

١- أن يتبيّن الطالب بعضاً من معاني ومفاهيم سورة الجمعة المباركة.

٢- أن يتعرّف إلى هدف البعثة النبويّة.

٣- أن يستعلم أهميّة صلاة الجمعة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

١- في رحاب السورة:

تدور هذه السورة المباركة حول محورَين أساسيَّين:

الأوّل: هو التوحيد وصفات الله والهدف من بعثة الرسول ومسألة المعاد.

والمحور الثاني: هو الأثر التربويّ لصلاة الجمعة وبعض الخصوصيّات المتعلّقة بهذه العبادة العظيمة.

ولكن يُمكن أن نُجمل الأبحاث الّتي وردت في هذه السورة المباركة بالنقاط التالية:

١- تسبيح كافّة المخلوقات.

٢- الهدف التعليميّ والتربويّ من بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

٣- تحذير المؤمنين وتنبيههم من مغبّة الوقوع في الانحراف الّذي وقع فيه اليهود فابتعدوا عن جادّة الصواب والحقّ.

٤- إشارة إلى قانون الموت العامّ والشامل الّذي يُمثّل المعبر إلى عالم البقاء والخلود.

٥- التأكيد على أداء فريضة صلاة الجمعة، وحثّ المؤمنين على تعطيل العمل والكسب من أجل المشاركة فيها.

٢- الهدف من بعثة الرسول:

تبدأ هذه السورة بالتسبيح لله عزَّ وجلَّ، وتُشير إلى بعض صفات الجمال والجلال والأسماء الحسنى لله. ويُعتبر ذلك في الحقيقة مقدّمة للأبحاث القادمة، حيث يقول تعالى: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾، حيث يُسبّحونه ويُنزّهونه عن جميع العيوب والنقائض، الملك القدّوس العزيز الحكيم.

وبناءً على ذلك تُشير الآية أوّلاً إلى "المالكيّة والحاكميّة المطلقة" لله سبحانه، ثمّ "تُنزّهه من أيّ نوع من الظلم والنقص" وذلك لارتباط اسم الملوك بأنواع المظالم والمآسي، فجاءت كلمة "قدّوس" لتنفي كلّ ذلك عنه جلّ شأنه.

وبعد هذه الإشارة الخاطفة ذات المعنى العظيم لمسألة التوحيد وصفات الله،

يتحدّث القرآن عن بعثة الرسول والهدف من هذه الرسالة العظيمة المرتبطة بالعزيز الحكيم القدّوس، حيث يقول: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾.

وذلك من أجل أن يطهّرهم من كلّ أشكال الشرك والكفر والانحراف والفساد ويُزكّيهم ويُعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

"**الأميّين**" جمع (أُمّيّ) وهو الّذي لا يعرف القراءة والكتابة (نسبته إلى الأمّ باعتبار أنّه لم يتلقّ تعليماً في معهد أو مدرسة فهو بقي على ما ولدته أمّه).

والجدير بالذكر أنّ الآية تؤكّد أن نبيّ الإسلام بُعث من بين هؤلاء الأميّين الّذين لم يتلقّوا ثقافة وتعليماً وذلك لبيان عظمة الرسالة وذكر الدليل على حقّانيّتها، لأنّ من المحال أن يكون هذا القرآن العظيم وبذلك المحتوى العميق وليد فكر بشريّ وفي ذلك المحيط الجاهليّ ومن شخص أميّ أيضاً، بل هو نور أشرق في الظلمات، ودوحة خضراء في قلب الصحراء، وهي بحدّ ذاتها معجزة باهرة وسند قاطع على حقّانيّته...

ولخّصت الآية الهدف من بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في ثلاثة أمور، جاء أحدها كمقدّمة وهو تلاوة الآيات عليهم، بينما شكّل الأمران الآخران أي (تهذيب وتزكية النفس) و (تعليمهم الكتاب والحكمة) الهدف النهائيّ الكبير.

ولكن لم يكن الرسول مبعوثاً لهذا المجتمع الأمّيّ فقط، بل كانت دعوته عامّة لجميع الناس، فقد جاء في الآية التالية ﴿**وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ**﴾[1].

وجاء في آخر الآية: ﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾.

بعد أن يُشير إلى هذه النعمة الكبيرة – أي نعمة بعث نبيّ الإسلام الأكرم وبرنامجه التعليميّ والتربويّ – يُضيف قائلاً: ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾.

[1] سورة الجمعة، الآية: ٣.

٣- الحمار الّذي يحمل الأسفار:

جاء في بعض الروايات أنّ اليهود قالوا: (إذا كان محمّد قد بُعث برسالة فإنّ رسالته لا تشملنا) فردّت عليهم الآية مورد البحث في أوّل بيان لها بأنّ رسالته قد أُشير إليها في كتابكم السماويّ لو أنّكم قرأتموه وعملتم به.

يقول تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا**﴾، أي نزلت عليهم التوراة وكُلّفوا بالعمل بها ولكنّهم لم يؤدّوا حقّها ولم يعملوا بآياتها فمثلهم ﴿**كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾.

لا يشعر هذا الحيوان بمّا يحمل من كتب إلّا بثقلها، ولا يُميّز بين أن يكون المحمول على ظهره خشباً أو حجراً أو كتباً فيها أدقّ أسرار الخلق وأحسن منهج في الحياة.

لقد اقتنع هؤلاء القوم بتلاوة التوراة واكتفوا بذلك دون أن يعملوا بموجبها.

هؤلاء مثلهم كمثل الحمار الّذي يُضرب به المثل في الغباء والحماقة.

وذلك أوضح مثال يُمكن أن يكشف عن قيمة العلم وأهمّيّته.

ويُعتبر ذلك تحذيراً للمسلمين كافّة من أن ينتهوا إلى ما انتهى إليه اليهود، فقد شملتهم الرحمة الإلهيّة ونزل عليهم القرآن الكريم، لا لكي يضعوه على الرفوف يعلوه الغبار، أو يحملوه كما تُحمل التعاويذ أو ما إلى ذلك. وقد لا يتعدّى اهتمام بعض المسلمين بالقرآن أكثر من تلاوته بصوت جميل في أغلب الأحيان.

٤- توصيف حال اليهود

ثمّ يقول تعالى: بئس مثل القوم الّذين كذّبوا بآيات الله، إذ لم يكتفوا بمخالفة القرآن عملاً، بل أنكروه بلسانهم أيضاً، حيث قالت الآية (٨٧) من سورة البقرة وهي تصف اليهود: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ**﴾.

ويقول تعالى في آخر الآية في عبارة وجيزة: ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾.

صحيح أنّ الهداية شأن إلهيّ، ولكن ينبغي أن تُهيّأ لها الأرضيّة اللّازمة، وهي الروح التوّاقة لطلب الحقّ والبحث عنه، وهي أمورٌ يجب أن يُهيّئها الإنسان نفسه، ولا شكّ أنّ الظالمين يفتقدون مثل هذه الأرضيّة.

ومن المعروف أنّ اليهود اعتبروا أنفسهم أمّة مختارة، أو نسيجاً خاصّاً لا يُشبه غيره، وذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما ادّعوا أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، وهذا ما أشارت إليه الآية (١٨) من سورة المائدة: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**﴾ (رغم أنّهم يقصدون الأبناء المجازيّين).

ولكنّ القرآن شجب هذا التعالي مرّة أخرى بقوله: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

فالأحبّاء يتمنّون اللقاء دائماً، ولا يتمّ اللّقاء المعنويّ بالله يوم القيامة إلّا عندما تزول حجب عالم الدنيا وينقشع غبار الشهوات والهوى، وحينئذ سيرى الإنسان جمال المحبوب ويجلس على بساط قربه، ويكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾ فيدخل إلى حرم الحبيب.

إنّ خوفكم وفراركم من الموت دليل قاطع على أنّكم متعلّقون بهذه الدنيا وغير صادقين في ادّعائكم.

ويوضّح القرآن الكريم هذا المعنى بتعبير آخر في سورة البقرة آية (٩٦) عندما يقول تعالى: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾.

ثمّ يُشير القرآن إلى سبب خوفهم من الموت بقوله: ﴿**وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾.

لأنّ خوف الإنسان من الموت ناشئ من عاملين أساسيّين:
الأوّل: عدم إيمان الإنسان بالحياة بعد الموت واعتقاده أنّ الموت زوال وفناء.

والثاني: أعماله السيّئة الّتي يعتقد أنّه سيواجهها بعد مماته في عالم الآخرة عندما تُقام المحكمة الإلهيّة.

وقد وصفهم القرآن الكريم بالظالمين، وذلك لأنّ الظلم يتّسع ليشمل جميع الأعمال السيّئة والجرائم الّتي ارتكبوها، من قتلهم الأنبياء وقول الزور وغصب الحقوق وتلوّثهم بمختلف المفاسد الأخلاقيّة.

غير أنّ هذا الخوف وذلك الفرار لا يُجدي شيئاً، فالموت أمرٌ حتميّ لا بدّ أن يُدرك الجميع، إذ يقول تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾.

الموت قانون عامّ يخضع له الجميع بما فيهم الأنبياء والملائكة وجميع الناس، كلّ من عليها فانٍ ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام.

وكذلك المثول أمام محكمة العدل الإلهيّ لا يفلت منها أحد، إضافة إلى علم الله تعالى بأعمال عباده بدقّةٍ وبتفصيل كامل.

وبهذا سوف لا يكون هناك طريق للتخلّص من هذا الخوف سوى تقوى الله وتطهير النفس والقلب من المعاصي. وبعد أن يُخلص الإنسان لله تعالى فإنّه لن يخاف الموت حينئذ.

ويعبّر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه المرحلة بقوله: "**هيهات بعد اللّتيّا والّتي، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه**"[1].

فإذا صدّقت النفس أنّ (الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر) وإذا أيقنت هذه النفس أنّ هذا البدن الترابيّ إنّما هو سجن للروح وسور يضرب الحصار عليها، إذا آمنت بذلك حقّاً وكانت نظرة الإنسان إلى الموت هكذا فإنّه سوف لن يخشى الموت أبداً.

[1] نهج البلاغة، ج١، ص٤١.

لهذا نجد في قصّة عاشوراء أنّه كلّما ضاقت حلقة الأعداء وازداد ضغطهم على الإمام الحسين وأصحابه ازدادت وجوههم إشراقاً، حتّى أنّ الشيوخ من أصحابه كانت الابتسامة تطفو على وجوههم في صبيحة عاشوراء، وحينما كانوا يُسألون كانوا يقولون: إنّنا سنُستشهد بعد ساعات فنُعانق الحور العين[1].

والسبب الآخر الّذي يجعل الإنسان يخاف من الموت هو التعلّق بالدنيا أكثر من اللازم، الأمر الّذي يجعله يرى الموت الشيء الّذي سيفصله عن محبوبه ومعشوقه الّذي هو الدنيا.

وكثرة السيّئات وقلّة الحسنات في صحيفة الأعمال هي السبب الثالث وراء الخوف من الموت، فقد جاء شخص وسأل (أبا ذرّ): ما لنا نكره الموت؟ فأجابه أبو ذرّ قائلاً: **"لأنّكم عمّرتم الدنيا وخرّبتم الآخرة، فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب"**[2].

أهمّيّة صلاة الجمعة

إنّ أفضل دليل على أهمّيّة هذه الفريضة العظيمة هو الآيات الأخيرة في هذه السورة المباركة، الّتي أمرت جميع المسلمين وأهل الإيمان بمجرّد سماعهم لأذان الجمعة أن يُسرعوا إليها ويتركوا الكسب والعمل، وكلّ ما من شأنه أن يُزاحم هذه الفريضة.

عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: **"إنّ الله تعالى فرض عليكم الجمعة، فمن تركها في حياتي أو بعد موتي استخفافاً بها أو جحوداً لها، فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أمره، ألا ولا صلاة له، ألا ولا زكاة له، ألا ولا حجّ له، ألا ولا صوم له، ألا ولا برّ له، حتّى يتوب"**[3].

[1] مقتل الحسين، المقرم، ص ٢٦٣.

[2] المحجّة البيضاء، ج ٨، ص ٢٥٨.

[3] وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٧.

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "**من أتى الجمعة إيماناً واحتساباً استأنف العمل**"[1]. أي غُفرت ذنوبه ويبدأ العمل من جديد.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: "**صلاة الجمعة فريضة والاجتماع إليها فريضة مع الإمام، فإن ترك رجل من غير علّة ثلاث جمع فقد ترك ثلاث فرائض ولا يدع ثلاث فرائض من غير علّة إلّا منافق**"[2].

والروايات كثيرة في هذا المجال ولا يتّسع المجال لذكرها جميعاً، لذا نحاول أن نُنهي هذا البحث بحديثٍ آخر، حيث جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله، إنّي تهيّأت عدّة مرّات للحجّ ولكنّي لم أوفّق. قال صلى الله عليه وآله وسلم: "**عليك بالجمعة فإنّها حجّ المساكين**"[3]. وفي ذلك إشارة إلى أنّ ما يتضمّنه هذا المؤتمر الإسلاميّ الكبير (أي الحجّ) من بركات، موجودة في اجتماع صلاة الجمعة.

ومن الملفت للنظر أنّه قد ورد ذمّ شديد لتارك صلاة الجمعة، حتّى عُدّ التاركون للجمعة في صفّ المنافقين عندما تكون صلاة الجمعة واجباً عينيّاً (أي في زمن حضور الإمام المعصوم عليه السلام) وأمّا في زمن الغيبة – وبناءاً على أنّها واجبة تخييراً بينها وبين صلاة الظهر – فإنّه لا يكون مشمولاً بهذا الذمّ والتقريع رغم عظمة وأهمّيتها في هذا الوقت أيضاً (للتوسّع في ذلك يجب الرجوع إلى الكتب الفقهيّة).

فلسفة صلاة الجمعة العباديّة والسياسيّة

إنّ صلاة الجمعة – قبل كلّ شيء – عبادة جماعيّة ولها أثر العبادات عموماً، حيث تُطهّر الروح والقلب من الذنوب، وتُزيل صدأ المعاصي عن القلوب، خاصّةً وأنّها تكون دائماً مسبوقة بخطبتين تشتملان على أنواع المواعظ والحكم، والحثّ على التقوى وخوف الله.

[1] م.ن، ج٥، ص٣.
[2] ثواب الأعمال، الصدوق، ص٢٣٣.
[3] م.ن، ج٧، ص٣٠٠.

أمّا من الناحية السياسيّة والاجتماعيّة فهي أكبر مؤتمر أسبوعيّ عظيم بعد مؤتمر الحجّ السنويّ، لهذا نجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول تلك الرواية الّتي نقلناها سابقاً حول أنّ الجمعة حجّ من لا يملك القدرة على المشاركة في الحج.

ويُعطي الإسلام في الحقيقة أهميّة خاصّة لثلاثة مؤتمرات كبيرة:
التجمّعات الّتي تتمّ يوميّاً لصلاة الجماعة.
التجمّع الأسبوعيّ الأوسع في صلاة الجمعة.
ومؤتمر الحجّ الّذي يُعقد في كلِّ سنّة مرّة.

دور صلاة الجمعة

دور صلاة الجمعة مهمٌّ جدّاً خاصّة وأنّ الخطيب سيتحدّث في الخطبتين عن المسائل السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة وبذلك سيكون هذا التجمّع العظيم والمهيب منشأً للبركات والنِّعم التالية:
أ- توعية الناس على المعارف الإسلاميّة والأحداث السياسيّة والاجتماعيّة المهمّة.
ب- توثيق الاتّحاد والانسجام بين المسلمين أكثر لإخافة الأعداء.
ج- تجديد الروح الدينيّة ورفع معنويّات المسلمين.
د- إيجاد التعاون لحلّ المشكلات العامّة الّتي تواجه المسلمين.

ولهذا فإنّ أعداء الإسلام يخافون دائماً من صلاة الجمعة الجامعة للشرائط.

ولهذا - أيضاً - كانت صلاة الجمعة مصدر قوّة سياسيّة في أيدي حكومات العدل كحكومة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الّذي استثمرها أحسن استثمار لخدمة الإسلام، وكذلك كانت مصدر قوّة أيضاً لحكومات الجور كدولة بني أميّة الّذين استغلّوها لتحكيم قدرتهم وسيطرتهم وإضلال الناس.

وعلى مدى التاريخ نُلاحظ أنّ أيّة محاولة للتمرّد على النظام تبدأ أوّلاً بالامتناع عن صلاة الجمعة خلف الإمام المنصوب من قبل الحاكم، فقد جاء في قصّة عاشوراء أنّ بعض الشيعة اجتمعوا في دار سليمان بن صرد الخزاعيّ ثمّ بعثوا رسالة إلى الإمام الحسين من الكوفة جاء فيها ".. **والنعمان بن بشير في قصر الإمارة،**

لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنّك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتّى نُلحقه بالشام إن شاء الله"[1].

وفي الصحيفة السجّاديّة عن الإمام السجّاد عليه السلام: **"اللهمّ إنّ هذا المقام لخلفائك وأصفيائك ومواضع أمنائك، في الدرجة الرفيعة الّتي اختصصتهم بها قد ابتزّوها"**[2].

وفي خطبة الجمعة يتمّ تبديد جميع الإشاعات الّتي كان الأعداء قد بثّوها خلال الأسبوع، وتدبّ بعد ذلك الحياة في جموع المسلمين ويبدأ دم جديد بالتدفّق.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ فقه أهل البيت عليهم السلام ينصّ على عدم جواز إقامة أكثر من جمعة واحدة في منطقة نصف قطرها فرسخ، كما يجب أن يشارك في صلاة الجمعة من كان يبعد عنها بمسافة فرسخين (أي ما يعادل أحد عشر كيلو متراً).

كلّ هذا يعني أنّه لا يُمكن إقامة أكثر من صلاة جمعة في مدينة واحدة صغيرة أو كبيرة، مع أطرافها وضواحيها. وبناءً على هذا فسيكون هذا التجمّع هو أوسع تجمّع يُقام في تلك المنطقة.

ولكنّنا نجد مع الأسف أنّ هذه المراسم العباديّة السياسيّة الّتي تستطيع أن تكون مصدر حركة عظيمة في المجتمعات الإسلاميّة، نجدها بسبب سيطرة الحكومات الفاسدة على بعض الدول الإسلاميّة قد فقدت روحها ومعناها، إلى الحدّ الّذي لا تترك فيه أيّ أثر إيجابيّ، وأصبحت تُقام باعتبارها مراسم حكوميّة رسميّة لا أكثر، وذلك ممّا يحزّ بالنفس ويؤلم كثيراً.

[1] البحار، ج ٤٤، ص ٣٣٣.

[2] الصحيفة السجّاديّة، دعاء ٤٢.

خلاصة

تدور هذه السورة حول محورين أساسيّين:

الأوّل: هو التوحيد وصفات الله والهدف من بعثة الرسول ومسألة المعاد.

والمحور الثاني: هو الأثر التربويّ لصلاة الجمعة وبعض الخصوصيّات المتعلّقة بهذه العبادة العظيمة.

صحيح أنّ الهداية شأن إلهيّ، ولكن ينبغي أن تُهيّأَ لها الأرضيّة اللّازمة، وهي الروح التوّاقة لطلب الحقّ والبحث عنه.

الموت قانون عامّ يخضع له الجميع بما فيهم الأنبياء والملائكة وجميع الناس.

إنّ السبب الأساس وراء الخوف من الموت هو عدم إيمان هؤلاء بالحياة بعد الموت أوالتعلّق بالدنيا أكثر من اللّازم أو كثرة المعاصي.

إنّ صلاة الجمعة – قبل كلّ شيء – عبادة جماعيّة ولها أثر العبادات عموماً، حيث تُطهّر الروح والقلب من الذنوب. أمّا من الناحية السياسيّة والاجتماعيّة فهي أكبر مؤتمر أسبوعيّ عظيم بعد مؤتمر الحجّ السنويّ.

للمطالعة

القرآن والاكتشافات العلميّة المعاصرة

لا شكّ أنَّ القرآن ليس كتاباً من كتب العلوم الطبيعيّة أو الطبيّة أو النفسيّة أو الرياضيّة.

القرآن كتاب يهدي الإنسان ويصنعه، فهو لا يترك شيئاً ضروريّاً في هذا السبيل إلّا وأتى به.

لذلك ليس لنا بالطّبع أنْ نرى في القرآن دائرة معارف عامّة، بل لنا أن نجد فيه نور الإيمان والهداية والتقوى والإنسانيّة والأخلاق والنظام والقانون، فهو يضمّ كلّ هذه الأُمور.

غير أنّ القرآن، للوصول إلى هذه الأهداف، يُشير أحياناً إلى جانب من العلوم الطبيعيّة وأسرار الخلق وعجائب عالم الوجود وخاصّةً خلال ذكر التوحيد والاستدلال بنظام الكون، فيرفع الستار عن بعض أسرار عالم الخلق ويكشف أُموراً لم يكن أحد يعرف عنها شيئاً يومذاك وفي ذلك المحيط، حتّى العلماء منهم.

هذه البيانات تجتمع تحت عنوان "**معجزات القرآن العلميّة**". نُشير إلى بعضٍ منها في ما يلي:

القرآن وقانون الجاذبيّة

لم يكن أحد قبل نيوتن يعرف شيئاً عن قانون الجاذبيّة العامّ. من المعروف أنَّ نيوتن هذا كان يوماً جالساً تحت شجرة تفّاح، فسقطت تفّاحة من الشجرة على الأرض، فاستولى هذا الحدث الصغير على كلّ تفكيره وأمضى سنوات يُفكّر في القوّة الّتي جذبت التفاحة إليها. لماذا لم ترتفع إلى السماء؟ وبعد سنوات توصّل إلى وضع قانون الجاذبيّة الأرضيّة الّذي يقول: "**تتجاذب الكتلتان بنسبة طرديّة مع حاصل ضرب كتلتيهما وعكسيّاً مع مربّع المسافة بين مركزي ثقليهما**".

على أثر صياغة هذا القانون اتّضح وضع المنظومة الشمسيّة.

لماذا تدور هذه الكواكب العظيمة كلّ في مدار حول الشمس؟ لماذا لا تهرب من هذا المدار وتنطلق في كل اتّجاه؟

لماذا لا تتراكم بعضها فوق بعض؟ ما هذه القوّة الّتي تُمسك هذه الأجرام في مدارات دقيقة في هذا الفضاء الشاسع، دون أنْ تتجاوزها حتّى بمقدار رأس الإبرة؟ اكتشف نيوتن أنَّ حركة الجسم الدائريّة تجعله يبتعد عن المركز، وقانون الجاذبيّة يجذبه إلى المركز، فإذا ما تعادلت هاتان القوّتان، القوّة الطاردة عن المركز، والقوّة الجاذبة نحو المركز، أي إذا أوجدت "**الكتلة**" و"**المسافة**" من القوّة "**الجاذبة إلى الداخل**" والقوّة "**الطاردة إلى الخارج**" مقادير متعادلة، بقي الجسم يدور في مداره ولا يتعدّاه.

غير أنَّ القرآن قبل أكثر من ألف سنة من اكتشاف هذه القوانين قال في الآية الثّانية من سورة الرّعد: ﴿**اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾.

وقد جاء في تفسير هذه الآية عن الإمام عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام قوله: "**أليس الله يقول بغير عمد ترونها؟ قلت: بلى. قال: ثَمّ عمد لكن لا ترونها**"[1].

أهناك تعبير أوضح وأبسط في الأدب العربيّ من هذا القول عن قوّة الجاذبيّة: أعمدة غير مرئية، ليفهمه عامّة الناس؟

وفي حديث عن الإمام عليّ أميرالمؤمنين عليه السلام نقرأ:

[1] مفاهيم القرآن، السبحاني، ج١٠، ص٢٣.

"هذه النجوم الّتي فى السّماء مدائن مثل المدائن الّتي في الأرض مربوطة كلّ مدينة إلى عمود من نور".

أليست هذه الإخبارات معجزة علميّة؟ خاصّة أنَّ الذي جاء به إنسان أُمّي لم يدخل مدرسة، بل إنَّه نشأ في محيط متخلِّف لا مدرسة فيه ولا تعليم. أفلا يكون هذا دليلاً على كون القرآن كتاباً سماوّياً؟[1]

[1] سلسلة دروس في العقائد الاسلاميّة، آية الله مكارم الشيرازي، مؤسّسة البعثة، ط٢، ص١١٢- ١١٤.